المقتبس

الجزء الرابع من المجلد الثاني

ربيع الثاني سنة ١٣٢٥ الموافق مايو (ايار) سنة ١٩٠٧

تبذير الكبراء

الاسراف في الغالب آفة من آفات الحضارة ولا اسراف اذا لم توجد حضارة وعلى نسبة حضارة الامة وغناها يكون في الاكثر بذخها واسرافها وان شئت فقل اسراف اهل البسطة والغنى . مثاله ما نسمعه لهذا العهد عن ديار الغرب وايغال الموسرين من اهله في الانفاق على كل ما طاب وحلا و بهرج و زخرف فينفق انفرد في الشهوات والتبرج ما يكفي لاعالة عشرات الالوف اعواماً . وتأتينا عنهم انباء لا تكاد تصدق لولا تناصرها واتفاق المشاهدين لها عياناً على اثبات ما يقال ويروى . ولو استقريت تاريخ الامم لرأيت الشيء الكثير من ذلك قبل ألوف من السنين وآخر من انتهت الينا اخبار ترفهم الرومان واليونان لما بلغت الحضارة بينهم حدها .

وهذا الشرق ايضاً ما خلا في كل دور من ادواره من مسرفين كانوا اخوان الشياطين واسراف اليوم يختلف عن اسراف امس فانه كان في غابر الاحقاب مقصوراً على رجال الدول والكلمة النافذة عند الملوك والسلاطين اما اليوم فالاسراف يكون من الرعاة والرعايا معاً خصوصاً بعد ان انتقلت الثروة الى الافراد . وتاريخ العرب لم ينقل الينا سوى اخبار الامراء والملوك وما عني المؤرخون بنقل اخبار الافراد من الاغنياء ولذلك كان علينا اذا رغبنا ان نستشهد تاريخنا ونبحث في حالتنا الاجتماعية في القرون الغابرة ان نقتصر على ايراد ما انتهى الينا عليه من اخبار اولئك العظماء وهي لا تخلو من عبرة وتسلية .

خذ لك امثلة لا تستغرب بعدها زوال الممالك الشرقية وتقرأ فيها نموذجاً من ثقتهم

في دورهم وقصورهم وافراحهم ومجتمعاتهم . فقد رأت الزميكية زوج المعتمد بن عباد الاندلسي الناس يمشون في الطين فاشتهت المشي فيه فامر المعتمد فسحقت اشياء من الطيب وذرت في ساحة القصر حتى عممته ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على اخلاط الطيب وعجنت بالايدي حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريها وغاضبها في بعض الايام فاقسمت انها لم تر منه خيراً قط قال ولا يوم الطين فاستحت واعتذرت .

ولما اقتعد ابن ابي عامر الذروة في ايام الحكم الاندلسي صنع قصراً من فضة لصبح ام هشام وحمله على رؤوس الرجال فجلب حبها بذلك وقامت بأمره عند سيدها الحكم وحدث الحكم خواصه بذلك وقال ان هذا الفتى قد جلب عقول حرمنا بما يتحفهم به .

وكان في دار القاهر بالله عشرة آلاف خادم من الخصيان ويفرق الضحية من الابل والبقر اربعين الف رأس ومن الغنم خمسين الف رأس . وكان عز الدولة بن بويه متوسعاً في الاخراجات والتكلف وكان يتناول احد الموظفين بايقاد الشمع امامه الف من في كل شهر .

ولما بعث ملك الروم يتوعد المستكفي بالله بالقتال استعرض عسكره فكان جملة العسكر المصفوف مائة الف وستين الفاً ووقف الغلمان بالزينة والمناطق الذهبية وكذلك الخدم والخصيان ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة وزينت دار الخليفة بالستور والبسط فكانت جملة الستور المعلقة ثمانية وثلاثين الف ستر من الديباج المذهب وكانت جملة البسط اثنين وعشرين الف بساط وكان في جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشر غصناً واوراقها من ذهب وفضة واغصانها تمايل بحركات موضوعة وعلى الاغصان طيور خضر من ذهب وفضة بتفخ الريح بها فيصفر كل طير بلغته .

وحكى الصابي عن بعض الرسل قال: دعينا الى باب مسعود يعني ابن محمود بن سبكتكين بغزنة فشاهدنا بالباب اصناف العساكر وملوك جرجان وطبرستان وخراسان والهند والسد والترك وقد اقيمت الفيلة عليها الاسرة والعاريات الملبسة بالذهب مرصعة بانواع الجواهر واذا بار بعة آلاف غلام مرد وقوف بساطين وفي اوساطهم مناطق الذهب وبايديهم اعمدة الذهب ومسعود جالس في سرير من الذهب لم يوضع على الارض مثله وعليه الفرش الفاخرة وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر واليواقيت وقد احاط به الغلمان الخواص بالمكل زينة ثم قام مسعود الى بساط من فضة عليه خمسون خواناً من الذهب على كل خوان خمسة اطباق من ذهب فيها انواع من الاشربة فسقاهم الغلمان ثم قام مسعود الى مجلس عظيم الاقطار فيه الف دست من الذهب واطباق كبار خسروانية فيها الكيزان وعلى كل طبق زرافة ذهب واطباق ذهب فيها المسك والعنبر والكافور واشجار الذهب مرصعة بالجواهر واليواقيت

وشموع من ذهب في رأس كل شمعة قطعة من الياقوت الاحمر تلمع لمعان النار واشجار العود قائمة بين ذلك وفي آخر المجلس رحى من ذهب تطحن المسك والكافور والعنبر وفي جوانب المجلس بحيرة في جوانبها من الجواهر والعنبر والفصوص شيء يقصر الوصف عنها وذكر اشياء أخر تحير الاسماء والاسماع — قاله ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار

ومما يعد في باب ترف الكبراء وسرفهم ما رواه المقريزي من أعذار (طعام الختان) بني ذي النون ملوك طليطلة من الثغر الجوفي في الاندلس وكانت لهم دولة كبيرة وبلغوا في البذخ والترف الى الغاية ولهم الاعذار المشهور الذي يقال له الاعذار الذنوني وبه يضرب المثل عند اهل المغرب وهو عندهم بمثابة عرس بوران عند اهل المشرق . وبوران هي ابنة الحسن بن سهل امرأة المأمون فالوا لما دخل اليها نثرت عليه جدتها الف لؤلؤة من النفس ما يكون فامر المأمون بجمعه فاعطاه بوران ثم اوقد تلك الليلة شمعة عنبر فيها اربعون منّاً (رطلاً) وقالوا ان المأمون لم يرقه هذا الاسراف وقال فيه . واقام المأمون في معسكر الحسن سبعة عشر يوماً له كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج اليه وخلع الحسن على القواد على مراتبهم وحملهم ووصلهم وكان مبلغ ما لزمه خمسين الف الف درهم وكتب الحسن اسماء ضياعه في رقاع ونثرها على القوّاد فمن وقعت بيده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فتسلمها واوعز الى التوتية باحضار السفن لاجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد الى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت الحرافات المعدة لذلك ثلاثين الفاً اجازوا الناس بها أخريات نهارهم .

والمتتبع لهذه الاخبار يعثر منها على الكثير ولا سيما في ايام مباهاتهم وولائمهم واعراسهم فقد روى المؤرخون ان ابا الجيش خمارويه بن طولون صاحب مصر لما زوّج ابنته اسماء للمعتضد بالله العباسي على صداق قدره الف الف درهم جهزها بما يحتاج لم يعمل مثله حتى قيل كان لها الف هاون ذهب وشرط عليه المعتضد ان يحمل كل سنة بعد القيام بجميع وظائف مصر وارزاق جنودها مائتي الف دينار ويقال ان المعتضد اراد يزواجها افتقار الطولونية وكذا كان . وذكر ابن الاثير في حوادث سنة ثمانين واربعمائة كيف نقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه السلجوقي الى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي وكان اكثر الاحمال الذهب والفضة وثلاث عمارايات وعلى اربعة وسبعين بغلاً مجللة بانواع الديباج المكي واجراسها وقلائدها من الذهب والفضة وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة لا يقدر ما فيها من الجواهر والحلي وبين يدي البغال ثلاثة وثلاثون فرساً من الخيل الرائقة عليها مراكب الذهب مرصعة بانواع الجوهر ومهد عظيم كثير الذهب وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة

كوهرائين والامير برسق وغيرهما ونثر اهل نهر معلى عليهم الدنانير والثياب وكان السلطان قد خرج عن بغداد متصيداً ثم ارسل الخليفة — المقتدي بامر الله — الوزير ابا شجاع الى تركان خاتون زوجة السلطان وبين يديه نحو ثلثمائة موكبية ومثلها مشاعل ولم يبق في الحريم دكان الا وقد اشعل فيها الشمعة والاثنتان واكثر من ذلك وارسل الخليفة مع ظفر خادمه محفة لم ير مثلها حسناً وقال الوزير لتركان خاتون سيدنا ومولانا امير المؤمنين يقول ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها وقد اذن في نقل الوديعة الى داره فاجابت بالسمع والطاعة وحضر نظام الملك فمن دونه من اعيان دولة السلطان وكل منهم معه من الشمع والمشاعل الكثير وجاء نساء الامراء الكبار ومن دونهم كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وتجملها وبين ايديهن الشمع الموكبيات والمشاعل يحمل ذلك جميعه الفرسان ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان بعد الجميع في محفة مجللة عليها من الذهب والجواهر اكثر شيء وقد احاط بالمحفة مائتا جارية من الاتراك بالمراكب العجيبة وسارت الى دار الخلافة وكانت ليلة مشهودة لم ير بغداد مثلها فلما كان الغد احضر الخليفة امراء السلطان لسماط امر بعمله حكي ان فيه الف من السكر وخلع عليهم كلهم وعلى كل من له ذكر في العسكر وارسل الى الخاتون زوجة السلطان والى جميع الخواتين وعاد السلطان من الصيد بعد ذلك

وهكذا كانت اعمال اولئك الرجال تصدر عنهم بلا روية ولا حساب لان الرعايا والبلاد والثروة كانت لهم يتصرفون فيها بما يشاؤون واين هذا الترف من ذاك الاقتصاد الذي أثر عن عمر بن عبدالعزيز وقد امر جليسه رجاء بن حيوة ان يشتري له ثوباً بستة دراهم فاتاه به فجسه وقال هو على ما احب لولا ان فيه لينا قال رجاء: فبكيت قال: فما يبكيك قال: اتيتك وانت امير بثوب بستاتة درهم فجسته وقلت هو على ما احب لولا ان فيه خشونة واتيتك وانت امير المؤمنين بثوب بستة دراهم فجسته وقلت هو على ما احب لولا ان فيه لينا فقال: يارجاء ان لي نفساً تواقة تاقت الى فاطمة ابنة عبدالملك فتزوجتها وتاقت الى الامارة فوليتها وتاقت الى الخلافة فادركتها وقد تاقت الى الجنة فارجو ان ادركها. وقال: قومت ثياب عمر بن عبدالعزيز وهو يخطب باثني عشر درهماً وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة.

بل اين ذاك الاسراف من زهد نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر فانه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين ولقد شكت اليه زوجته من الضائقة فاعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له يحصل له منها في السنة

نحو العشرين ديناراً فلما استقلتها قال: ليس لي الا هذا وجميع ما يبدي انا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ولا اخوض نار جهنم لاجلك . وكذلك كان خليفته صلاح الدين يوسف ابن ايوب فانه كان على كثرة فتوحه وبسط يده على ذخائر وكنوز عظيمة لم يدخر منها شيئاً وفرقه في وجوه المبرات واقامة المعالم الخيرية حتى اذا لحق بربه لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوري وار بعين درهما ناصرية ولما بنى له احد رجاله في دمشق قصراً مشرفاً بجبل نخه على عمله ولم يرض ان يسكنه لما انفق عليه من النفقات الفاحشة .

و بالجملة فتاريخ الامة يشهد على المسرفين اعمالهم كما ينادي بالثناء على المقتصدين من رجالها فان جاء مثل ابن عباد وابن ابي عامر والقاهر والمستكفي والحسن بن سهل فقد جاء امثال عمر بن عبدالعزيز ونور الدين وصلاح الدين وكل منهم ذكر بعمله ولقي جزاءه في قصده واسرافه .

الانتحار

سلامٌ على الدنيا سلام مودع رأى في ظلام القبر انساً ومغنما

الانتحار واسبابه

الانتحار قتل النفس . ولا يعمد المرء اليه حتى تضيق به الدنيا او تضيق به نفسه . ولا يبعث الانسان على الانتحار باعث اشد من ضياع امل له كان يعلل به قلبه او نعمة زالت كان يتمتع في نعيمها او مال فقده على غير رغبة منه او أسرفوقع فيه وهو لا يرجو منه فكاكاً او ذنب جناه ولا يرى له من الجزاء عليه خلاصاً او غرام كوى فؤاده وهو لا يرجو ان يطفئ ناره بناء الوصال .

وهناك باعث اشد من تلك البواعث واعني به سوء التربية ونقص التهذيب . فان النفس الساذجة كالسيف البتار الذي اغفلته الصياقل او كالحجر الكريم لا يبدو بهاؤه حتى يزيل صداه العامل الحاذق فيبهر الابصار بنوره . والتهذيب يصقل النفوس و يظهر الفضيلة الكامنة .

وانك ترى اخا الجهل اذا ثارت براسه سورة الغضب ولم يكن الانتقام طوع بنانه او احب حبًا اخذ برشده وغشي على بصيرته ولم ينل اربه او فقد مالاً قليلاً تعب في الحصول عليه يضيق به عقله و يقتل نفسه بيده

الحكماء والانتحار

وابعد الناس عن قتل النفس اهل الحكمة والعلم فانهم يرون الانتحار جبناً وضعفاً في العزيمة ووهناً في الهمة . وهم اذا لم يبلغوا مناهم عادوا فاملوا واذا زالت نعمة كانوا يرفلون في حللها فنعوا بآثارها وان فقدوا مالاً فالمال ادنى ما يتطلبون وان نالهم اسر عملوا بان

لكل شيء مدة وتنقضي ما غاب الايام الا من رضي

وهم اشد الناس احجاماً عن الذنوب فأنى لهم ان يجرموا فيجتوبهم القنوط ؟ اريد بالعمل الحكمة اولئك الذين نالوا من العلم منالاً كبيراً فاسفرت لهم الحقيقة وعلموا بخلود النفس .

الفلاسفة الماديون والانتحار

ومن المفكرين فريق لا يقول بالنفس والخلود ويرون ان الموت نهاية كل حي . وهذا الفريق يؤثر الموت على الحياة والفناء على البقاء ويرى ان الحياة شر وتعذيب وفي الموت كل الراحة والهناء . ومن انصار هذا الفريق فريق الماديين وهم يقولون بان النفس بدعة لا وجود لها وان الكون خلق من المادة . انما توجد في الخلق الحياة بالحركة وغيرها من القوى الكامنة في المادة . ومنهم الدهريون القائلون بان «العالم ارحام تدفع وارض تبلع»

وان المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطيء يعمر فيهرم

وان امر الانسان في حياته موقوف على صروف الزمان . هؤلاء باسرهم يقولون بتفضيل الموت على الحياة ويرون ان الحياة ذنب جناه الناس على النسل . وقد نتأت هذه المبادىء عند الفرس واليونان وغيرهم من الامم التي اتى عليها الزمان . فلما اشرقت شمس الحكمة في الغرب وابنعت ازهار المدنية الحديثة قام من الغرب اناس يدعون الى تلك المذاهب والبسوها لباس الغلو الشديد . حتى حدث الحال بينهم ان اسسوا جمعيات بمدان انتشروا بينهم على الانتحار بالتعاقب فينتظم الفرد في سلكها على ان يقتل نفسه اذا انتهى اليه الدور واصابته النوبة .

الجهلاء والانتحار

وترى الجاهلين وهم لم يسمعوا بالخلود ولم يعوا بان لهم نفوساً زكية لها بالخالق اتصال ولم يعلموا بمبدإ الماديين ولم يبلغهم مذهب الدهريين اذا مسّهم تكاليف الحياة (واي الرجال لم يسأم ؟) عمدوا الى نفوسه فاختطفوها من بين جنوبهم وهم على يقين من انهم يلقون عذاباً اليماً قائلين ولعذاب الاخرة خير لنا من تكاليف الاولى

كتاب القصص والانتحار

يلعب كتاب القصص بالنفوس لعباً . ويندر ان تقع لك قصة لا تنتهي بقتل نفس ليأس استحوذ على رجل او حب احدث في قلبه جنوناً . ولقد تنال تلك الصغائر من صغار العقول منالاً كبيراً فتمهد لهم السبيل الى ارتكاب ما يرتكبون .

على انه ليس في كتاب (الف ليلة وليلة) وهو اشهر القصص في لسان العرب قصة تنتهي بقتل النفس . وقد يقاسي احد ابطال ذلك الكتاب اهوالاً تشيب لها الولدان ولا يخطر على قلبه قتل نفسه .

واخبار العرب في كتب الادب وهي كثيرة غزيرة فيها اخبار الحرب والغرام والثأر والانتقام لا تجد فيها خبراً ينتهي بقتل النفس . انما تسرب الينا الافتداء بابطال القصص في قتل النفس من تلك القصص الغريبة التي يحفظ بها المعربون

فن التمثيل والانتحار

وانك لا تشاهد رواية مؤلمة حتى تجد لقتل النفس فيها اثراً كأنه هو ما يعمد اليه الناس وقت ضيقهم وهم لا يعمدون الى خالقهم او يثوبون الى رشدهم .

واشد تلك الروايات في النفس وقعاً رواية (شهداء الغرام) وخلاصتها ان فتى يعشق فتاة . ويقف العداء في سبيل قربهما . ثم يحدث انه يقتل قريباً لها فينفيه الملك فتحزن عليه حبيبته وتجزع كأشد ما يناله بعده سبات عميق فيدفنها اهلها . ويأتي حبيبها الى قبرها زائراً على غير علم بانها لا تزال حية ترزق . واذا ما رأى قبر حبيبته ورأى جمالها الفتان قد ذبلت زهرته يجزع جزعاً فيخطف روحه الموت الزؤام وتفيق حبيبته من سباتها فيأخذ بصرها حبيبها فتراه جثة هامدة قد اطفأ الموت شعلتها فتقتل نفسها

وغير هذه من روايات شكسبير رواية القائد المغربي . فانه تلحقه غيرته على امرأته من رجل غريب ويوقع بينه وبينها رجل من اهل الشر والفساد فيخدعها فتأمنه . ثم يتفحص الحق ويدري بانها بريئة وان شرفه سليم لم يدنه اذى فيقتل نفسه غيظاً من نفسه

ومن روايات فيكتور هوجو رواية طبق الخافقين ذكرها واشتهر امرها بين اهل الفضل والادب اسمها (رو بيلاس) وخلاصتها ان اميراً من امراء الاسبان رأى ان الملك صائر الى الزوال لان الملك كان كثير التنقل والارتحال والملكة من ربات الجمال فأتى في بعد الملك بغلام من السوقة يهي الطلعة وقال انه اخوه فاحلته الملكة محل الاكرام والتبجيل واحب الغلام الملكة حباً مبرحاً هذب نفسه ولطف من خلقه وسما به سمواً كبيراً . ورأى

روبيلاس الوزراء يوماً يتفاوضون فيما بينهم على مال المملكة فعنفهم فسمعته الملكة فاحنقته وقربته اليها . ولما علم الامير المحتال بذلك جمع بينهما تحت مدارع الظلماء على غير علم منهما بقصده ثم فاجأهما ووصم الملكة بوصمة العار وذلك لتتخلى عن الملك ويتفرد به . فعز الامر على روبيلاس وخلع لباس الامراء وقال انك لقيت الملكة مع غلام من بطانتها ولم تجدها مع امير يظن به وبها السوء . فذعر الامير الكبير لفعله فاخذ الغلام بسيفه وقتل به الامير ثم جرع السم فارتاعت الملكة وصرخت بملء فيها (روبيلاس) فيقول وهو يتضاءل بين يدي الموت :

« مولاتي الرحمة والرضوان »

ثم يغلبه الموت على امره . :

قصيدة من الشعر

وحرام على حافظ ابراهيم ان ينظم قصيدة تهيج النفوس الساكنة وتحرك الشر في القلوب وتحمل من نالت منه الخطوب على ان يقتل نفسه اذ قال حفظ الله نفسه :

سعيت الى ان كدت اتعلم الدعا ... وعدت وما اعقبت الا التندما
سلامٌ على الدنيا سلامُ مودع ... رأى في ظلام القبر انساً ومغنما
اصرَّت به الاولى فيالم باختها ... وان ساءت الاخرى فويلاه منهما
فيهي رياح الموت نكباً واطفئي ... سراج حياتي قبل ان يتحطما
فيا قلب لا تجزع اذا عضك الاسى ... فانك بعد اليوم لن تتألما
وياعين قد آن الجمود لمدمعي ... فلا سيل دمع تسكبين ولا دما
وياصدر كم حلت بذاتك ضيقة ... وكم جال في انحائك الهمُّ وارتمى
فهلا ترى في ضيقة القبر فسحة ... تنفس عنك الكرب ان بت مبرما

اكابر الرجال والانتحار

ولقد قام فريق من اهل الطب وقالوا بان الجنون اقوى اسباب قتل النفس . وعارضهم في ذلك آخرون وقالوا بان من يحفظ التاريخ ذكر انتحارهم كانوا من اعقل الناس واكبرهم نفوسا

ومن هؤلاء الرجال العظام الذين سعوا الى حتوفهم باظلافهم وخطفوا ارواحهم باسيافهم القائد الفرطجني الشهير هنيبال فانه بعد ان هزم جنود الرومان شر هزيمة عاد فافل نجم سعده ورافقته الخيبة ولازم جنده الفشل وانهزم . فأوى الى ملك يحتمي به ثم لم تطق نفسه ان تبقى على الذل فانتحر

ومنهم كاتو القائد الروماني الشهير . وكان ذلك القائد من انصار بومبيوس الذين يمتون اليه بحبل الصداقة والاخلاص وكان من المتألبين على قيصر العاملين على اخذاله فلما اخلفت الايام ظنه وبات قيصر والنصر حليفه واندحر بومبيوس وانصاره شق الامر على كاتو وابت نفسه ان يبقى على الضيم فطعن نفسه بخنجره طعنة اودت بحياته .

ومنهم اوتو القيصر الروماني الكبير الذي تألبت عليه جنود الالمان وردوه مخذولاً محسوراً فابت نفسه العار واختار الصارم البتار . ووجد عليه اهل مملكته فقتل كثير منهم نفوسهم حزناً وأسى

ومن له المام بالتاريخ الحديث يذكر ان فريدريك الكبير بعد ان ظهر على اعدائه ظهوراً كبيراً عاوده النحس ولزمه الفشل وتألبت عليه ثلاث دول كبرى وتخلى عنه محالفوه فاحتواه اليأس ونزل منه الفنوط وعمد الى الانتحار . ولكنه عاد فغلبته على امره بقية عزيمة فيه وتحول عن قتل نفسه بنفسه

نابليون لم ينتحر

ولا يسعنا الا ان نذكر نابليون ذلك الملك الكبير صاحب الحروب والغارات ورب القتال الذي نال من الامم مالم ينله الاسكندر او هنيبال فانه بعد ان كان من امره ما كان واسرته انكلترا مالكة البحار وقذفت به الى تلك الجزيرة القصية التي يحيط بها « بحر الظلمات » احاطة المطبق بالاسير وبقي فيها في ذل وانكسار تحت حكم رجل جاف الطبع غليظ القلب لا يعبأ باكاليل النصر ولا تهمه نجاة الانتحار ست سنين طوال لم يدّخر في خلاله امر الانتحار . فما اكبر تلك النفس في النصر والاسر؟

انتحار المرأة

والرجال الذين يقتلون نفوسهم اكثر من النسوة اللاتي يقترفن الانتحار لان الرجل اقرب الى متاعب الحياة وهمومها وهو الذي يلقى آلام العيش ويذوق اصناف العذاب فهو الهارب الطالب الراغب الراهب الهالك النادب . وهو الذي يخوض غمار معترك الحياة فاما فائزاً منصوراً او مخذولاً محسوراً .

اما المرأة فهي سيدة الرجل ومليكة قلبه يسعى ليأتيها برزقها وينصب ليصونها من الشقاء فهي ابعد منه عن مصائب الدهر وطوارق الحدثان .

وانك لترى ان النساء لا يعمدن الى الانتحار فراراً من فقر او هرباً من عار او حرصاً

على شرف من ان تناله يد الاذى او حزناً على مال مضيع او اسفاً على نفسر عقد للاعداء لواؤه ولكن لحب دب في النفس دبيب الجنون في العقل او غيرة نالت من قلوبهن ماتناله النار من الحطب .

وكأن المرأة لا تزال تخشى على جمالها من ان تذبل زهرته حتى بعد الموت فهي تقتل نفسها بما لا يمس حسن وجهها فتعمد الى السم او الغرق . واشهر من قتلن نفوسهن من النسوة الملكة كليوبطرة . فانها بعد ان مات عشيقها (انطونيوس) وامست الدنيا في عينيها اضيق من سم الخياط عمدت الى قتل نفسها . فدعت اليها وصيفة لها وقالت البسيني حلة الملك دضعي فوق رأسي تاج السلطان فقد آن لي ان اموت وكنت اهوى ان اكون من الخالدات اما الآن فما اسهل الموت وما احلاه وما امرّ العيش وما اقسى الحياة . آه . اني اكاد اسمع صوت حبيبي وهو يدعوني اليه . واراه يهمّ بنفسه فاذا رآني اسعى نحوه تبرق أسرّته . ثم اخذت بالحية وقالت الميّ ايتها الحية الفانية حلي عقدة حياتي . ووضعت بها على صدرها وحنت عليها حنوّ ام مرضع ففغرت الأفعى فاها كأنها تبسم لها ورضعت من ثديها ماء الحياة .....

ولما جنت اوفليا عشيقة هملت عمدت الى قتل نفسها فارخت غدائر فرعها ووضعت فوق رأسها اكليلاً من الزهور وسعت الى غصن شجرة على شاطئ النهر وجلست عليه واخذت تهز بنفسها طرباً كما تهتز الطيور على الاغصان وهي تشدو وتغرد فلم يقو الغصن على حمل قدها وهوى بها فعانقها الموت على صدر الماء

على ان هناك سبيلاً الى الموت ايسر من السم والغرق . روى رجل رأى فتاة سلكت ذلك السبيل قال : « ودفعنا بالباب فهبت علينا من الحجرة روائح الازهار وعطر الرياحين ونظرنا الى الفراش فاذا به مثقل بالفل والياسمين والورد والنسرين . وبعمرنا بالفتاة وهي بين خمائل الزهور وقد نامت ملء جفونها ولكن ورد خدودها لم يذبل بخلاء بعض الزهور الزاهرة . »

الانتحار داء من ادواء المدنية

قال ابن خلدون : « ان البداوة اقرب الى الخير من الحضارة وسبب ذلك ان النفس اذا كانت على الفطرة الاولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير او شر واهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلونت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه . واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا انه في المقدار الضروري

لا في الترف ولا في شيء من اسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل منهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى اهل الحضر اقل بكثير فهم اقرب الى الفطرة الاولى وابعد مما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها »

ونزيد على قول ذلك العالم الجليل ان في جسم الحضارة شوائب وادواء البداوة سليمة منها . فان اهل الحضر يجمعون في طباعهم بين الانانية والاستئثار بالنفع والكذب والنفاق والسرقة فتنزع نفوسهم الى الشر والفساد واما اهل البدو فهم ابعد عن تلك العيوب والمثالب لان الخيرات عندهم وافرة فلا يتسرب الطمع الى نفوسهم ولا يجد حب الذات من قلوبهم مكاناً رحباً .

وليس الانتحار الا داء من ادواء المدنية الحديثة يلجأ اليه كل بائس ظلمه ذلك المجتمع الانساني واهمل شأنه وهو في حاجة اليه .

ولذا ترى قتل النفس يزداد رويداً في كل البلدان التي انتشرت فيها المدنية وهو على الاكثر في المدن الكبرى حيث معترك الحياة اشد بأساً ونار الجهاد في سبيل هذه الحياة الدنيا احمى وطيساً وعلى اقله في القرى الصغيرة وبين الفلاحين وحيث يجد كل انسان عملاً يعمله هو . وحيث لا ترى المرأة تتبرج وتتزين فتأخذ بعقل الرجل وحيث لا حانات يأوي اليها الفيان فيزيدون جنوبهم بما لديهم من المال القليل وحيث الطبيعة ساكنة هادئة تشهد بجمال الخالق وقدرته وكماله .

هل الانتحار عدل ؟

لا يستطيع الكاتب ان يبوح برأيه في امر قتل النفس بعد ان بينه هذا التبيين ويجدر بالقارىء ان يحكم على الامر بنفسه . وغير نكير ان الحياة كلها شر وان الخير فيها صائر الى الزوال . . وان ذوي المفسدة ينالون مالا يناله اهل الخير والفضل . ونعلم ان حب الحياة فطرة في الانسان فهو لا يعمد الى قتل نفسه الا اذا بلغت به الهموم والاحزان او الفقر والفاقة مبلغاً شديداً او نال منه داء لا يرجى شفاؤه او غرام مبرح منالاً كبيراً او ابت نفسه الذل بعد العز . وتلك امور لا يعرفها الا من يذوق مرها لان الشوق لا يعرفه الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها . ونحن نعلم ان احد هذه البواعث يحدث في العقل جنوناً فيقتل المجنون نفسه . فهلا التمسنا عذراً للمجانين ؟

القاهرة محمد لطفي جمعة

الجباية في الاسلام

فن المالية منزلة عالية عند رجال الدول لانهم في اشد الحاجة الى معرفته ليعلموا كيف يفرضون الضرائب على الامة ولهذا عنيت به الامم وبيوت تجعلوه من اهم الفنون التي تقرأ في ارقى المدارس الجامعة فمن درس هذا الفن واطلع على كتاب الخراج لابي يوسف رآه جامعاً للابحاث المالية في صورة مجملة مندمجة القواعد تكون اساساً لروح اموال الدول وبياناً لذلك اشرع بتعريف فن المالية واذكر موضوعه وغايته فاقول :

فن المالية (هو علم يبحث عن اموال الدول) وضع لوصف تلك الاموال وبيان نوعها وتكييف ادارتها . وغايته تعليم القواعد المقررة المأخوذة عن تجارب جرت لاخذ الاموال بالعدل وصرفها بالعقل على شرط ان تحفظ مصالح الامة والحكومة معاً فالدولة التي لا تراعي قواعد هذا الفن لا يتيسر لها ان تحصل على الاموال الطائلة التي تلزم لحفظ حياة بلادها والذود عن حياض امتها .

منشأ اموال الدول

ثبت بالاستقراء ان كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر سنة الكون في جميع الامور وناموس عام يشمل الاشياء كلها وهذا القول يصدق على البشر والدول . ولما اخذ الناس يتكاثرون ويتمون في الارض انشأوا ينقسمون الى قبائل وعشائر واصبح قوي بهم يطمع في التغلب على ضعيفهم فطرة فيهم منذ خلقوا ودأبهم في كل جيل . وهذا ما دعا كل فريق الى الحذر من جاره او الانتقام منه او التعدي عليه فيتحاربون ويتقاتلون وينهب بعضهم اموال بعض ويعيثون بالسكان ويسبون النساء ويستخدمون الذراري فيجعلونهم اذلاء صاغرين . وكانت الدولة في تلك الادوار عبارة عن هيئة تحفظ نفسها من تعدي القبائل والعشائر وتسعى لتكون على وفاق مع غيرها وتنشر لواء العدل وتحكم بالعرف والعادة معتمدة على الوجدان على حين كان لا فرق بين الحكومة والدولة ومن ثم يتفهم ان اساس وظائف الحكومة واهمها منع اعتداء الاعداء ونشر لواء العدل بين افراد الامة وكانت العادة اذ ذاك ان يتجهز افراد القبيلة للحرب بسلاحهم واموالهم بيد انهم كانوا يتركون ما يخلفونه من الاموال والاراضي لرئيسهم واعوانه جزاء شجاعتهم في الحرب وقيامهم بسنة العدل في زمان السلم وما هذه الاموال والاراضي المسلوبة الا اموال الدولة الابتدائية وعلى هذا النمط كانت الامم الشرقية في العصور المتقدمة توزع الغنائم على الامراء والشجعان والرهبان وتأسر السكان وتزرع اراضيهم على اكتافهم . ولما ارتقت حكومات اليونان القديمة والدول الشرقية اخذن يوسعن نطاق

بلادهن ويقوين سطوتهن فبنين بتلك الاموال واولئك الاسرى المباني العظيمة والآثار الفخيمة التي لا تزال تدهش المتأخرين وظل هذا الناموس معمولاً به وقاعدة من قواعد حقوق الدول المعتبرة في ذلك الحين الى ان بزغت شمس الاسلام فنبين بطلان هذا القانون الوهمي وجعل القائمون بدعوة الدين يكتفون بفتح البلاد وضرب الخراج على الاراضي والجزية على الرقاب ويتركون السكان احراراً يتصرفون في املاكهم كما يشاؤون «كتاب الخراج ص ١٤ و٢٠» وجاء فيه بالحرف قال عمر رضي الله عنه «فافرز ما افاء الله عليك في ايدي اهله واجعل الجزية عليهم بقدر طاقتهم تقسمها بين المسلمين ويكونون عمار الارض فهم اعلم بها واقوى عليها ولا سبيل لك عليهم ولا للمسلمين معك . ص ٨٣»

وعدت الدول الاسلامية وحكومات الرومان على ذلك العهد تصرف الاموال في توطيد دعائم الامن والعدل وتسهيل سبل النجاح على ان الملوك والامراء في الاجيال المتوسطة اخذوا يحصرون الاموال والاراضي بانفسهم فصاروا يديرون الممالك بذاتهم وكانت اموالهم يومئذ عبارة عن دخل الرهبان بعد موتهم ريثما يعين غيرهم يضاف الى ذلك دفائن الذهب والفضة المكتشفة واموال من لا وارث يرثهم او من قتلوا جزاء اعمالهم القبيحة وما يحصل من الحراج والمعادن وضرائب المسكرات والصيد وانتقال الاراضي بين الوارثين وعشور البيع والشراء والجزاء النقدي وغير ذلك فيتضح من ذلك ان الاموال المذكورة هي اساس الضرائب الجارية في البلاد المتمدنة الآن .

ولما اخترع البارود واستبدلت المحرقات الفاتكات بالجارحات واتحدت الامم والشعوب جعلت الدول تنبه عجباً بعظمتها فاخذت يثير بعضها على بعض ويشن الغارات اعواماً مديدة حتى صارت الحكومة تنوء باعباء الديون واضطرت الى تحصين القلاع وتقوية الحدود واستخدام الجيوش المنظمة في زمن السلم دون الحرب وانشأت تسعى في تزييد اموال الملة ليزداد دخلها وتسعى في رفاهيتها وسعادتها وتحسين اخلاقها وتهيىء الاسباب الكافية لهذا الغرض فافتضى لذلك مبالغ طائلة .

فتبين مما تقدم ان اهم وظائف الحكومة نحو الامة حفظ كيانها من تعدي الاعداء في الداخل والخارج وهذا لا يقوم الاّ باحكام أُسس العدل والحريق وتعميم المعارف وتوفير اسباب الزراعة ولتنظيم الصنائع وتسهيل طرق التجارة وكل ذلك يحتاج الى دراهم ولذلك حق للحكومة ان تأخذ من الامة اجرة قيامها بنشر العدل والامن داخلاً وخارجاً براً وبحراً وليست هذه الاجرة الا «اموال الخراج» التي يحق لها تقاضيها من افراد الامة .

قال ابو يوسف : «كتب امير الطائف الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه» ان

اصحاب النحل لا يؤدون الينا ما كانوا يؤدون الى النبي صلى الله عليه وسلم ويسألون مع ذلك ان نحمي لهم اوديتهم فاكتب الي برأيك في ذلك فكتب اليه عمر ان ادوا اليك ما كانوا يؤدونه الى النبي صلى الله عليه وسلم فاحم لهم اوديتهم وان لم يؤدوا اليك ما كانوا يؤدونه الى النبي صلى الله عليه وسلم فلا تحم لهم قال وكانوا يؤدون الى النبي عليه الصلاة والسلام من كل عشر قرب قربة اه ص ٤٠ وقال : فلما رأى اهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا اشداء على عدو المسلمين وعونا للمسلمين على اعدائهم فبعث اهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجلاً من قبلهم يخبرون الاخبار عن الروم عن ملكهم وما يريدون ان يصنعوا فاتى اهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بان الروم قد جمعوا جمعاً لم ير مثله فاتى رؤساء اهل كل مدينة الامير الذي خلفه ابي عبيدة عليهم فاخبروه بذلك فكتب والي كل مدينة ممن خلفه ابو عبيدة الى ابو عبيدة يخبره بذلك ولتابعت الاخبار على ابي عبيدة فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين فكتب ابوعبيدة الى كل وال ممن خلفه في المدن التي صالح اهلها بأمرهم ان يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج وكتب اليهم ان يقولوا لهم انما رددنا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم . فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الاموال التي جبوها منهم قالوا ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً واخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا شيئاً اه ص ٨١ فتأمل !

كيف تطرح الضرائب

تبين مما فصلناه ان طرح الضرائب العادلة التي تطيق الامة حملها (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) حق صريح من اهم حقوق الحكم والاستقلال ولا يخفى على من قرأ التاريخ ان الحكومات وقعت في دوين جسيمة وتداعت تحت اثقالها بسبب الحروب العظيمة التي امتدت اعواماً وشهوراً لعلل معقولة او غير معقولة حتى اضطرت الى تحميل الامة الاجرة التي تقدم ذكرها مع تسوية ديونها من اجل حفظ كيان الدول ولذلك عرّف علماء هذا الفن الضريبة بقولهم : الضريبة ما اصاب كل فرد من افراد الامة من نفقات الحكومة بالنسبة لربحه الحقيقي

فالضرائب يجب ان تؤخذ من افراد الامة بالعدل والانصاف وشرط في اخذها النسبة مع صافي ايراد كل شخص وقد بذل الاوروبيون جهدهم في البحث فلم يروا غير ثلاث طرق يؤملون بها اخذ الضرائب التي لا مناص منها على قاعدة العدل والانصاف ولكنهم

فلما نجحوا فيما قصدوا له واما تلك الطرق الثلاث فهي :

(١) ان يبين افراد الامة ايرادهم و يعترفوا للحكومة بمداخيلهم

(٢) التحقيقات الرسمية

(٣) الامارات الخارجية

فبيان افراد الامة واعترافهم هو اجبار كل فرد على بيان حقيقة ربحه لينال نصيبه من النفقات اللازمة للحكومة . غير ان هذه الطريق لا تكون سالمة لان الناس يكرهون بيان حقيقة اموالهم مع ربحهم ولا يستثنى من ذلك الا الانكليز الذين حرموا على انفسهم الكذب امام حكومتهم فيما يترتب عليهم اداؤه لانهم على ثقة من عدلها فلا تكافهم مالا يطيقون ومع ان هذه الطريق اقرب للعدل من سواها فهي لا تكون عادلة عند جميع الامم و يستحيل اعتراف المرء بحقيقة دخله اذا كان مقدار الضرائب فوق الطاقة .

واما التحقيقات الرسمية فهي ان يدقق عمال الحكومة و يحققوا دخل افراد الامة ومهما كان اولئك الموظفون متصفين بالعدل معروفين بالانصاف بريئين عن الغرض والغاية لا يصدقون في تقديراتهم ولا يصلون الى حفظ النسبة بين المكلفين ولذلك يصعب تحقيق العدل في هذا الطريق .

واما الامارات الظاهرة فهي اقل عدلاً من غيرها لان الظواهر لا تكون حقائق وذلك باعتبار المنازل الجسيمة والمجلات والخيول والخدم دليلاً على كثرة الربح . وهذه الطريقة غير سديدة لان الناس اعتادوا ان يتظاهروا بالمال والغنى و يضعوا انفسهم في مصاف من لهم من الايراد ما يساوي ملكهم وكذلك البخلاء المقترون ممن اذا رأيتهم حسبتهم من الفقراء المدقعين مثلهم كمثل البغال والحمير يحملون الفضة والذهب وياكلون التبن والشعير فلو نظر لظواهرهم هؤلاء وفرضت الضرائب على تلك النسبة ظلم الاولون وتضررت الحكومة بحصة الآخرين

ومع شدة عناية الدول المتمدنة بايجاد واسطة لوضع الضرائب بالعدل لتعم كل فرد وتؤخذ منهم على نسبة واحدة لكي لا يكلف الضعيف بالكثير ولا القوي بالقليل لم ينجحوا حتى الآن . بيد ان سعيهم هذا جعلهم يقربون من العدل وكذا المسلمون في صدر الاسلام بذلوا قصارى جهدهم من اجل ان يعدلوا بين الرعية في حفظ النسبة بين الايراد والضرائب

جاء في كتاب الخراج ص ٢٠ فمسح عثمان (١) الارضين وجعل على جريب العنب عشرة دراهم وعلى جريب النخل ثمانية دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب

(١) هو عثمان بن حنيف ارسله عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الحنطة اربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وعلى الرأس اثني عشر درهماً واربعة وعشرين درهماً وثمانية واربعين درهماً وعطل من ذلك النساء والصبيان . اه وقال : حدثني الحجاج بن أرطاة عن ابن عوف ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مسح السواد مادون جبل حلوان فوضع على كل جريب عامر او غامر يناله الماء بدلو او بغيره زرع او عطل درهماً وقفيزاً واحداً ومن كل رأس موسر ثمانية واربعين درهماً ومن الوسط اربعة وعشرين درهماً ومن الفقير اثني عشر درهماً وختم على اعناقهم رصاصاً والغى لهم النخل عوناً لهم واخذ من جريب الكرم عشرة دراهم ومن جريب السمسم خمسة دراهم ومن الخضر من غلة الصيف من كل جريب ثلاثة دراهم ومن جريب القطن خمسة دراهم اه ص ٢٣

وقال : ثم حمل الاموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً وعلى كل الف اصل كرم مما قرب ديناراً وعلى كل الفي اصل مما بعد ديناراً وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم او اليومين واكثر من ذلك وما دون اليوم فهو في القرب وحملت الشام على مثل ذلك وحملت الموصل على مثل ذلك اه ص ٢٤ فتبين من هذا ان مراعاة النسبة للايراد الصافي من اهم الامور التي يجب ان يعنى بها في طرح الضرائب .

جباية الاموال

وخلاصة الامر ان رجال الاسلام سعوا لجعل التكاليف متناسبة مع ايراد الاشخاص كي لا يظلم زيد بعمرو . واما جباية الاموال فشرط فيها عماله هذا القن ان تكون في زمان سعة المكلف بها فيحصل من الفلاح ضريبته مثلاً بعد ان يذري غلاته و يأتي بها للبيع لئلا يضطر للاستدانة بالربا . فيكون مكلفاً بالمال ورباه . ويتقاضى من ارباب المواشي بعدما تُنتج وتدرج و يتمكن من بيعها حتى لا يستدين ايضاً وتؤخذ عن العقارات عند ما تؤجر ومن الصادرات والواردات عند دخولها وخروجها واوصوا ان لاتجبى تلك الاموال قبل اوانها فقال ابو يوسف « كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى احد عماله على العشور في العراق والشام من مرّ عليك فاخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً الى مثل ذلك اليوم من قابل الا ان تجد فضلا - الى ان قال . حدثني يحيى بن سعيد عن زريق بن حيان وكان على مكس مصر فذكر ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كتب اليه ان انظر من مر عليك من المسلمين فخذ مما ظهر من اموالهم ومما ظهر من التجارات من كل اربعين ديناراً ديناراً وما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين ديناراً فان نقصت تلك الدنانير

فدعها ولا تأخذ منها واذا مرّ عليك اهل الذمة فخذ مما يديرون في تجاراتهم من كل عشرين دينارًا دينارًا فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ثم دعها فلا تأخذ منها شيئًا واكتب لهم كتابًا بما تأخذ منهم الى مثلها من الحول اه ص ٧٩

وقد شرط على الجباة ان لا يضايقوا الرعية لئلا تنفر من الحكومة وحددوا لهم زمان الجباية فمن تأخر عن الدفع انذره الجابي بلطف بخجله فاذا تأخر عن ايفاء ماعليه بعد انذاره انذره ثانية بشدة تمزوجة بلين واذا تأخر بعد ذلك اقام عليه الدعوى بالمحكمة ثم يوضع الحكم في دائرة الاجراء فتحصل هذه كسائر الديون بحسب القانون على شرط ان لا تمس كرامة المكلف بدفعها. قال ابو يوسف حدثني اسمعيل بن ابراهيم بن المهاجر البجلي عن عبد الملك بن عمير قال حدثني رجل من ثقيف قال استعملني علي بن ابي طالب رضي الله عنه على عكبراء فقال لي واهل الارض معي يسمعون: انظر ان تستوفي ماعليهم من الخراج واياك ان ترخص لهم في شيء واياك ان يروا منك ضعفًا ثم قال رح اليّ عند الظهر فرحت اليه عند الظهر فقال لي انما اوصيك بالذي اوصيتك به قدام اهل عملك لانهم قوم خدع انظر اذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفًا ولا رزقًا يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ولا تضربن احدًا منهم سوطا واحدًا في درهم ولا تقمه على رجله في طلب درهم ولا تبع لاحد منهم عرضا في شيء من الخراج فانا انما امرنا ان نأخذ منهم العفو فان انت خالفت ما امرتك به ياخذك الله به دوني وان بلغني عنك خلاف ذلك عزلتك. قال: قلت اذن ارجع اليك كما خرجت من عندك قال: وان رجعت كما خرجت قال: فانطلقت فعملت بالذي امرني به فرجعت ولم انقص من الخراج شيئًا اه ص ٩

وقد منع عمال الصدقة «الجباة» عن قبول الهدية والصدقة قال ابو يوسف استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقال له ابن اللتبية على صدقات بني سليم فلما قدم قال: هذا لكم وهذا اهدي اليّ قال فقام النبي عليه الصلاة والسلام على المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال: ما بال عامل ابعثه فيقول هذا لكم وهذا اهدي اليّ افلا قعد في بيت ابيه وبيت امه حتى ينظر أيهدى اليه ام لا والذي نفسي بيده لا يأخذ احد منها شيئًا الا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته اما بعير له رغاء او بقرة لها خوار او شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رؤي بياض ابطيه فقال اللهم هل بلغت اه ص ٤٦

ولما كان امر جباية الاموال من اهم الامور التي يجب بها تجنب الظلم والاعتساف وحفظ راحة العامة والخاصة قال ابو يوسف «ان تختر قومًا من اهل الصلاح والدين والامانة

فتوليهم الخراج ومن وليت منهم فليكن فقيهاً عالماً مشاوراً لاهل الرأي عفيفاً لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف في الله لومة لائم ما حفظ من حق وادى من امانة احتسب به الجنة وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت تجوز شهادته ان شهد ولا يخاف من جور في حكم ان حكم فانك انما توليه جباية الاموال واخذها من حلها وتجنب ما حرم منها يرفع من ذلك ما شاء ويحتجن منه ما شاء فاذا لم يكن عدلاً ثقة امينا فلا يؤتمن على الاموال » الى ان قال : وقد يجب الاحتياط فيمن يولى شيئاً من امر الخراج والبحث على مذاهبهم والسؤال عن طرائقهم كما يجب ذلك فيمن اريد لحكم والقضاء ونقدم الى من وليت ان لا يكون عسوفاً لاهل عمله ولا محتقراً لهم ولا مستخفاً بهم ولكن يلبس لهم جلباباً من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير ان يظلموا او يحملوا مالا يجب عليهم ثم قال : ولتصير مع الوالي الذي وليته قوماً من الجند من اهل الديوان في اعتاقهم بيعة على النصح لك فان من نصحك ان لا تظلم رعيتك وتأمر باجراء ارزاقهم عليهم من ديوانهم شهراً بشهر ولا تجري عليهم من الخراج درهماً فيما سواه وقال : نقدم في اختيار هؤلاء الجند الذين تصيرهم مع الوالي وليكونوا من صالحي الجند ومن له الفهم واليسر والنعمة منهم ان شاء الله تعالى اه ص ٦١ و يستنتج مما نقدم ان مراعاة النسبة بين الايراد و بين الضرائب من اهم القواعد الاساسية في فن المالية و يظهر للقارىء مما ذكر ان المسلمين في صدر الاسلام بذلوا طاقتهم من اجل تخفيف اثقال الضرائب عن الامة كما يفعل القائمون بوضع الضرائب من العمال العالمين بقواعد هذا الفن في البلاد الراقية اليوم وكذا اقرّ العلماء ان الدولة لا تكون غنية الاّ بشعبها ولا يغنى الشعب الاّ بقلة الضرائب فمنع ابو يوسف طلب الزيادة عن الخراج من المكلفين بعبارة طويلة ثم ختم كلامه قائلاً في الزيادة « وهذا كله ضرر على اهل الخراج ونقص للفيء مع ما فيه من الاثم » ص ٦١

ش . دمشق

من اين الى اين

من اين من اين يا ابتدائي ثم الى اين يا انتهائي
اين فناء الى وجود ومن وجود الى فناء
أم من وجود له اختفاء الى وجود بلا اختفاء
خرجت من ظلمة لاخرى فما امامي وما ورائي
مازلت من حيرة بامري معانق اليأس والرجاء

ان طريق النجاة وعر يكبو به الطرف ذو النجاء
ياقوم هل في الزمان نطس يهدي الى ناجع الدواء
لاي امر هذي الليالي تأتي وتمضي على الولاء
فتطلع الشمس في صباح وتغرب الشمس في مساء
ارى ضياء يروق عيني ولست ادري كنه الضياء
وما اهتزاز الاثير الا علالة نزرة الجلاء
نحن على رغم ما علمنا نعيش في غيهب العماء
نشرب ماء الظنون عبّا فلم نعد منه بارتواء
تاتي علينا مشاهدات نروح منهن في مراء
وكم نرى فعل فاعلات من القوى وهي في الخفاء
ياويلة الحس انه عن حقيقة الامر في غطاء
فان اجزاء كل جسم مبتعدات بلا التقاء
وفي دقاق الجماد عرك يتهم الحس بالخطاء

***

ياقوة الجذب اطلقيني من ثقلة اوجبت عنائي
لولاك لولاك ياشكالي لطرت كالنور في الفضاء
انت عماد السماء لكن خفيت عن عين كل راء
ربطت كل النجوم فيها بعضاً ببعض وبط اعتناء
فدرن في الجوّ جاريات كأنها السفن فوق ماء
نحن بني الارض قد علمنا باننا من بني السماء
لو كنت في المشترى لبانت ارضي سماء بلا امتراء
فليس فوق وليس تحت ولا اعتلاء لذي اعتلاء
وانما نحن فوق نجم نحيا محاطين بالهواء
فليت شعري اي ارتقاء للروح يبقى اسيء ارتقاء
وانت ياكهرباء سرّ بدا وما زال في غشاء
عجائب الكون وهي شتى فيك انطوت ايما انطواء
اضأت ان شئت كل داج لنا وادنيت كل ناء
فانت للكائنات روح ان كانت الروح للبقاء

وكم تقاضاك فيلسوف حقيقة صعبة الاداء
فقال والقول منه ظن ما الكون الا بالكهرباء

***

ويلة بتها أناديه نجومها ابعد النداء
أأخذ منهن بالتمداني فكرًا ويأخذن بالتنائي
فانثني باكيًا يشعريه ويطرب الليل من بكائي
وربما كرّ بعد وهن فكري فالفي بعض الشفاء
فارجع القهقرى اغني وما سوى الشعر من غناء
افول والنسر فوق رأسي وطالع النجم في ازائي
يا أيها الانجم الزواهي لله ما فيك من بهاء
اما كفاك السنى جمالاً حتى تجللت بالسناء
يا انجم العش فاصدقيني امات ذو النعش بانطفاء
اني اذا كنت في حداد اليك اهدي حسن العزاء
وانت يا نسر من كلال وقعت ام طلبة الغذاء
اخوك مثل طائر لوكر ام قاصد منتهى الفضاء
كأن ام النجوم سيف سُلّ على الليل ذو مضاء
رُصع متناه بالدراري فراق في الحسن والرواء
كأن نجم السها اديب في ارض بغداد ذو ثواء
كأن خط الشهاب مدل لاسفل البئر بالرشاء
كأنما النجم الثريا في شكلها الباهر الضياء
فقاز كف به فصوص من حجر الماس ذي الصفاء

***

برئت للموت من حياة ما نكبت مهيع الشقاء
لم يكفها انها احتياج حتى غدت حومة البلاء
يا أيها المترف المهنى يمرح في ثوب كبرياء
مهلاً اخا الكبر بعض كبر ألست تفنى بعض الحياء
انت ابن فقر الى أمور بهن تدعى يا ابن الثراء

بغداد معروف الرصافي

اميركا الشمالية

موقعها الجغرافي — تشغل اميركا الشمالية القسم الشمالي من القارة الغربية وتحتوي على نحو سدس اليابسة من الكرة الارضية وهي تقريباً مثلثة الشكل وشواطئها المحرية مسننة لعمق خلجانها .

سطحها — ان القسم الغربي من سطحها مرتفعات واسعة تخترقها سلسلة جبال عالية وهي تمتد بلسان طويل من برزخ تاتيبيك الى آخر شمالي غربي القارة

مساحتها — مساحتها ٩٫٣٤٩٫٧٤١ ميلاً مربعاً وهي اكثر بقليل من نصف مساحة قارة آسيا — اكبر واعظم قارة في العالم — وتبلغ زهاء ثاني قارة افريقية مساحة واكبر من قارة اوروبا مرتين . وطولها نحو ٥٥٠٠ ميل وعرضها نحو ٤٥٠٠ ميل وهي ثالثة القارات اتساعاً .

جبالها — اعلى جبالها هما جبل سانت ايلياس . وعلوه ١٨٫٠١٠ اقدام . وجبل اورزابا وعلوه ١٨٣١٤ اقدماً . وهذان الجبلان من سلسلة جبال كورديلراس . وهما ثانيا جبال الدنيا بعلوهما . فجبل حملايا في قارة آسيا يعلو عن سطح البحر ٢٧٠٠٠ قدم وهو اعلى جبال الدنيا وجبال القوقاس في اوربا تعلو عن سطح البحر ١٧٨٠٠ قدم وهي خامس جبال الدنيا بالعلو . اما الجبال الصخرية في اميركا الشمالية فتخترق البلاد من البحر الشمالي من جنوب نحوم الاسكا الى الجهة الجنوبية من اميركا الجنوبية .

انهارها — اشهر انهار اميركا الشمالية مسيسبي . ولورانس . ومكنكي . وهي اهم سائر شرقي الجبال الصخرية ويوكون . وكولمبيا ثلاثة انهر مصدرها ثلك الجبال وهي تصب في الاوقيانس الباسيفيكي . ومسيسبي من الانهر التي تسير فيها السفن ومصدره في شمالي البلاد ومصبه في بحر المكسيك وهو اسرع انهار اميركا ويصب فيه نهر اوهايو ونهر ميسوري ونهر اركانسس . ونسبة نهر مسيسبي في اميركا الشمالية الى سائر انهرها كنسبة نهر امازون الى سائر انهار الدنيا من حيث العظم والكبر والطول

ونهر امازون اعظم انهار الدنيا في برازيل في قارة اميركا الجنوبية ومساحته ٢٦٨١٠٠٠ ميل وهو ثاني انهار الدنيا طولاً . فنهر يانيسي في سيبيريا اطول انهار الدنيا طوله ٣٦٨٨ ميلاً وطول امازون ٣٥٩٦

بحيراتها — عدد بحيرات اميركا الشمالية عشر اشهرها واعظمها خمس بحيرات هي سوبيريور ومشيغن . وهورن . واري . واونتاريو ومن هذه البحيرة يخرج نهر سانت لورانس السابق الذكر

هواؤها — اعظم قسم من اميركا الشمالية هو في المنطقة المعتدلة . وفي هذا القسم صحاري وحراج واسعة وقسم صغير منها في المنطقة المتجمدة حيث لا تعيش النباتات والمغروسات او حيث تكون الانجم والخطب هي النباتات الرئيسة . وعلى الجملة فان شمالي اميركا الشمالية بارد كثيراً وهواؤها معتدل في اقاليمها المتوسطة وحار في جنوبيها حيث تجود الاشجار وتكثر البقول والثمار .

امطارها — تهطل الامطار تهطالاً كثيرا على الاقاليم الواقعة غربي شمالي كولمبيا وعلى الاراضي الواطئة المحيطة بخليج المكسيك وبحر كريب وقلما تمطر في سلسلة جبال كوردبلراس وفي الاقاليم الواقعة غربي المكسيك . اما سائر اقاليم هذه القارة فمطرها معتدل وكثيراً ما تمطر في فصل الصيف كما تمطر في فصل الشتاء

اراضيها — اراضي اميركا الشمالية جيدة جداً وفيها سهول واسعة وهي مخصبة . وقد بقيت قروناً عديدة قبل اكتشافها بوراً فصارت اليوم بهمة الجالية الاوربية تدرّ على البلاد اخلاف الثروة واليسار وهي الارض التي يصح القول فيها انها ارض الميعاد التي تفيض لبناً وعسلاً .

حاصلاتها — البر والشعير والذرة والانس والبطاطا والعنب والشمش والدراق والخوخ والتين والموز والسكر والتفاح الذي لا نظير له في الدنيا بحجمه وجودته . والارز والقطن والشاي واكثر انواع البقول .

حيواناتها — اكبر حيواناتها المفترسة النمر المخطط والدب الاغبر والدب الاسود والجاموس البري والغزال والثعلب ودب القطب الشمالي والجمل والبقر والخنزير والغنم والماعز والكلب والهر وغيرها وتبلغ الحيوانات التي لا توجد في بلاد سواها نحو ثمانين نوعاً وتعدد الطيور فيها ٣٦٣ نوعاً

اما الوحوش البرية التي كانت تأوي الغابات والحراج فقد انقرض اكثرها . واصدرت حكومات الولايات الاوامر بانقراضها وعمر الاوربيون المهاجرون معظم تلك الارجاء

معادنها — الذهب والفضة والفحم الحجري والقصدير والرصاص والماس والزمرد واللؤلؤ والمغناطيس . وهذه المعادن توجد بكثرة فيها واميركا الشمالية اغنى قارة في العالم بالمعادن ومعادنها الذهبية توجد بكثرة في كليفرنيا وهو الاقليم الذي يشبه الاقليم السوري في القارة الآسياوية من وجوه

اقسامها — تقسم اميركا الشمالية الى ثمانية اقسام هي الولايات المتحدة والمكسيك التي استقلت تحت الحكم الجمهوري سنة ١٨٢٤ واميركا المتوسطة وجزائر الهند الغربية وكرينلاند

والاسكا ونيوفوندلاند . وتحكم سبعة اقسام منها الولايات المتحدة . اما كندا فتحكمها الدولة الانكليزية

حدودها — يحدها شمالاً الاوقيانوس المتجمد الشمالي وشرقاً الاوقيانوس الاتلانتيكي وجنوباً بحر كريب وبرزخ داريان والاوقيانس الباسيفيكي وغرباً الاوقيانوس الباسيفيكي ومضيق بيرين والاوقيانوسات المحيطة بهذه القارة هي الاوقيانوس الشمالي المتجمد والاوقيانوس الاتلانتيكي والاوقيانوس الباسيفيكي

انواع البشر القاطنة في هذه القارة — يقطن هذه القارة خمسة انواع من البشر هي النوع القوقاسي واصله من انكلترا وجرمانيا وفرنسا واسبانيا وسائر ممالك اوربا . والنوع الحبشي واصله من قارة افريقية الجنوبية وهو يكثر في جنوبي الولايات المتحدة . والنوع المغولي واصله من الاسكيميين وهم جيل من الناس يقيمون في بعض جهات الشمال من القارة والصينيون اتوا من الشرق الاقصى في آسيا وهم مقيمون غالباً في غربي البلاد في ولاية كليفرنا . والنوع المعروف بهنود اميركا — سكانها الاصليين الذين كتبنا عنهم نبذة تقدمت هذه

اديانها — نشأت اديان عديدة للانسان في كل جيل وبلاد فطنها الانسان وعمرها فمن البشر من عبد الشمس والقمر والنجوم والسيارات والاصنام وبعض انواع الحيوانات . ومنهم من عبدوا الله جلّ جلاله . ومنهم من جعلوا افراداً ممتازين ببعض المواهب العقلية آلهة فسجدوا لهم وعبدوهم . وقد قام الملاحدة ويقومون في كل زمن وقطر ومصر

وتاريخ اديان الجنس البشري متفاوت فتاريخ دين اليهود يرجع الى اربعة آلاف سنة في ايام ابراهيم الخليل في غربي قارة آسيا وهم يؤمنون بالتوراة . وتاريخ دين النصارى يرد الى نحو الفي سنة وهم يؤمنون بالسيد عيسى والانجيل . وتاريخ قدماء المصريين يرجع الى نحو خمسة آلاف سنة . وكان هؤلاء يعبدون بعض الحيوانات والصور والنقوش التي توهموا انها كانت مقدسة . وتاريخ اهل الهند يرد الى اكثر من اربعة آلاف سنة وكان الهنود ولا يزال اكثرهم يعبدون بقرهم وفريق منهم يعبدون بوذا . وتاريخ بوذا يرجع الى نحو ٢٥٠٠ سنة . ويرد تاريخ الاسلام الى اكثر من الف وثلثمائة سنة

وما يقال في اديان سكان البلاد والقارات التي اشرنا اليها يقال في اديان قارة اميركا الشمالية . فان فيها عبدة الاوثان وهم في كرنيلاند في شمالي شرقي البلاد وكلهم من الاسكيميين وعبدة الشمس والقمر وبعض الحيوانات وهم معظم هنود اميركا . وفي هذه القارة البوذي والبرهمي والكافر والمؤمن والمحمدي والدرزي واليهودي والنصراني . والديانة العامة في هذه القارة هي الديانة المسيحية

اما اديان اميركا الشمالية فترجع الى تاريخ هنود اميركا المجهول وتاريخ اديان سائر القطان فيها واذا اعتبرنا تاريخ اديانها منذ اكتشافها فيكون اربعمائة واربع عشرة سنة

تنوّعت المذاهب وتعدّدت المشارب في هذه البلاد ومع ذلك فليس للتعصب اثرٌ فيها . فالحرية مباحة فيها لكل دين من الاديان وان المهاجرين السوريين ليأتونها من بقعة عريقة في التعصب الى بقعة حديثة بالتساهل وقد حمل فريق منهم التعصب معهم الى هذه القارة واخذ هذا الفريق يتاجر بالاديان فكانت ثمرات التعصب وتلك التجارة اهراق الدماء وخسارة المال واهانة الاسم والسمعة

الولايات المتحدة — اوماها نبراسكا يوسف جرجس زخم

التجارة والشهرة

من مقالة في المجلة البارزية

ظهر كتاب في نيويورك مؤخرًا اسمهُ « طريقة الاعلانات الجديدة » قال فيه مؤلفه انهُ انتشر الولع بالسياحة في المجتمع الحديث فلم تكتشف كل امة ان لتنعزل وراء تخومها عزلة تامة بل راحت تختص بعمل لا يشاركها فيه سواها . فاذا كانت المانيا تؤثر كبار رجالها المعروفين وتوسد اليهم الاعمال العلمية وفرنسا تعلم ابناءها الصنائع على اختلاف ضروبها فان اميركا تسوق ابناءها الى مضامير الاعمال وهي على ما يظهر موطن المشاريع الصناعية العظمى . وانا لنميل كل الميل ان نحكم على الأمم حكمنا على الافراد . نحكم عليهم حكمًا مبسطًا في شؤون ليست فيهم على حين كان الواجب علينا ان نقدرهم قدرهم ونفعمهم في المنزلة التي يستحقونها . وقد يذهب بنا الاستقراء الناقص الى ان نستنبط ان جارنا محروم من الامر الفلاني . وما على الغريب عن امة يريد ان يصفها حق وصفها الا ان يضيف ما رآه الى ما لم يره . فان في الاشياء ابدًا ما يحجب به ويحب . ولا شك ان الحاجيات بأسرها والنزوع الى العلى قد اخذت حظها عند كل امة مثال ذلك انك تشهد التفنن بالصنائع في اميركا الاّ انك تراه على انهُ في مملكة اخرى وعلى وجه يخالفه كل المخالفة . فمن يطلب المصنوعات الفرنسية في اميركا يسخر منه كمن يطلب الى اللابوني (١) ان يلبس ثياب سكان

(١) اقليم لابونيا في شمالي اوربا قسم منه تحت حكم روسيا وقسم منه للسويد وسكانه نحو سبعين الف نسمة وبلادهم على مقربة من القطب الشمالي تصاب بالجمد تسعة اشهر ويكون فيها كل سنة يوم وليلة طول كل منهما ستة اسابيع

المناطق الحارة او للنازل على مقربة من خط الاستواء ان يعد الادوات لصيد الدب الابيض من جواره

يعيب فلاسفة الالمان على الاميركي عدم اشتغاله بعلوم ما وراء الطبيعة وعلى العكس يعيب علماء النفس الاميركان على اساتذة الالمان اكتفاءهم من العلوم بالنظر فيها دون العمل بها . ويعيب المثقفون من الفرنسيس على الاميركي كونه نفعياً على حين ترى الاميركي يهزأ اذا نظر الى ما في بلاد الفرنسيس من آثار التفنن والصناعة . قال الفيلسوف هربرت سبنسر : ان صاحب الفلسفة هو الذي يعرف الصلات التي يهتدي اليها عامة الناس .

وبعد فان اميركا توصف بانها مهد الاعمال المالية والحركة التجارية والصناعية . والاعلانات هي دليل على ما هنالك من نشاط في الاتجار والصنائع . ومتى اوردنا لك بعض الارقام يتبين لك ان القوم غربيون في امالهم . قال موسيو ديسي : تنفق الولايات المتحدة في السنة خمسمائة مليون ريال اجور اعلاناتها . اي ان ما تنفقه يقرب مما تنفقه الدول الاوربية العظمى كروسيا والمانيا وفرنسا وانجلترا واسبانيا على جيوشها . كانت الولايات المتحدة تنفق هذا المبلغ سنة ١٩٠٥ وبحسب التقدير الذي قدره عالمان آخران ارتفعت النفقات من ستمائة مليون ريال الى الف مليون ريال

وارتقاء الاعلانات في هذه البلاد آخذ بالزيادة تبعاً لارتقاء التجارة فقد كان يعد مسرفاً قبل الحرب المدنية من يدفع أجرة اعلانه ثلاثة آلاف فرنك اما اليوم فهذه الاجرة تعد عادية بسيطة حتى ان معمل الموازين (فيربانك وشركاؤه) الذي كان ينفق على الاعلانات نحو ثلاثة آلاف فرنك مسانهة اخذ اليوم ينفق نحو ثلاثة ملايين ونصف من الفرنكات في السنة . وليس هذا المعمل هو الوحيد في هذا المعنى بل ان تسعة بيوت ومعامل تنفق مثله او اكثر على نشر اعلاناتها . فقد خصص احد معامل الصابون منذ نحو ثلاثين سنة ثلاثين الف ريال للاعلان عن مصنوعاته وها هو اليوم يصرف الف ريال في اليوم على هذا الغرض . وتخصص المعامل الكبرى التي تبيع بالمفرق في مدينة نيويورك وحدها زهاء اربعة ملايين ريال في السنة لنشر اعلاناتها في الصحف . وفي مدينة شيكاغو يستخدمون البريد لنقل قوائم باعلاناتهم وقد صرف احد اصحاب المخازن الكبيرة لارسال طبعة واحدة من الاعلانات بطريق البريد ٦٤ الف ريال ومعظم الاجور التي يدفعها ارباب المحال التجارية والصناعية يؤدونها لارباب المجلات لان المجلة تبقى على المنضدة معرضة للانظار نصف شهر او شهر ريثما يصدر العدد التالي اما الجرائد فانها تغيب عن الانظار بعد ساعات من صدورها .

تتقاضى احدى صحف فلاديلفيا وهي تطبع مليون نسخة ستة ريالات عن كل سطر من الاعلانات فتكون اجرة النسخة الواحدة في اليوم ستة آلاف ريال واذا خصصت بجعل تجاري واحد تؤجر باربعة آلاف ريال . وهكذا الحال في جريدة العملة التي تصدر في اوغستا فان اجرة السطر فيها خمسة ريالات وهذه الجريدة تطبع مليونًا وربع مليون نسخة والمجلات تتقاضى في اميركا عن الاعلانات اجرة ارخص من اجرة الجرائد لانها اقل انتشارًا واعظم مجلة تطبع في العالم الجديد ٦٠٣٣٥٠ نسخة وتأخذ اجرة كل صفحة خمسمائة ريال وكثيرًا ما تكون نصف صفحاتها مشحونة بالاعلانات فقط وقد قدر ما تتقاضاه عشر مجلات كبرى في الولايات المتحدة فبلغ معدله السنوي ٣٥٣ر١٣٠ر٤ ريالا . وهكذا قل عن النفقات الطائلة التي ينفقها ارباب التجارة على تعليق اعلاناتهم في الحيطان والمواقف في الشوارع فان احدى شركات الحبوب استأجرت ثلاثين الف مكان لتعليق الاعلانات من حجم ثماني ورقات وعشرين الف مكان من حجم اربع وعشرين ورقة يبلغ خمسة وعشرين الف فرنك في الشهر . وكانت اعظم قيمة دفعت على هذا الضرب من الاعلانات عشرة ريالات في السنة عن كل قدم مربع في احدى ساحات نيويورك العظمى

ويكون للتاجر من الرجل الماهر في التفنن بالاعلانات اعظم ذخر وانفع عامل فينتقده راتبًا معلومًا . ولذلك تدفع المخازن الكبرى التي تبيع بالمفرق في امهات مدن اميركا مثل نيويورك وشيكاغو وفيلادلفيا ١٢٥٠٠ ريال في السنة لمن ينشيء الاعلانات اليومية والرجل الذي يحسن صف البضائع في الزجاج يتقاضى اجرة مثل هذه مساهمة

قدر المقدرون ان متوسط ما ينفقه التاجر الاميركي على الاعلانات من اصل ارباحه خمسة في المائة ومنهم من ينفق اكثر ومنهم من ينفق اقل . ويقتضي ذلك من التفنن وحسن الذوق شيئًا كثيرًا . ولما كانت اميركا المثل السائر بغناها ترى الدراهم فيها تغدو وتروح من جيب الى جيب كأنها بانطلاقها دراهم ذاك الكريم المفتخر بقوله

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

فالمرء بادي بدء لا يرى حاجة ماسة لا يتباع المصنوعات وبيعها الا طمعًا في الارباح الكثيرة ومباهاة بما لديه من عروض ومتاع وثروة حقيقية او غير حقيقية ثم تصبح هذه العادة بعد من ضروريات الحياة . قال باسكال في كتابه (الافكار) : اكثر من الصلاة تكن تقيًا . ويقول لسان حال التجارة : اجعل الزخرف والزينة ديدنك تغدو بطبعك مفتنًا والذوق يحصل لصاحبه بسرعة .

قالوا ان التاريخ يعيد نفسه وهو قول صحيح فقد رأينا طبقة الاشراف في الغرب وهي

في الاصل من ابناء اولئك البرابرة القساة والامراء الغلاظ الجفاة في اوائل القرون الوسطى قد رقت طباع اهلها بالتعليم والتربية فالمال هو الذي يولي الشرف ويحسن الاذواق في الحقيقة. امر بديهي لان حواسنا تتأثر في الغالب والمجب يورث الرغبة في الجمال وامتلاك ناصية الجمال تكون مادة للعجب

خذ مثالاً لذلك رغبة القوم في اميركا بالملاحة والظرف وتأثيرهما في عقولهم . فان المخازن العظيمة التي تبيع بالمفرق في المدن الكبرى كنيو يورك مثلاً يكثر الطلب عليها ايام الاثنين اكثر من سائر ايام الاسبوع . ذلك لان الجرائد تصدر يوم الاحد طبعات خاصة من صحفها وتملؤها بالاعلانات وعلى العكس في يوم الجمعة فان الاشغال فيه تكون في فتور حتى يعده التجار من الايام التي لا حياة فيها ولا رواج لسلعهم . بيد انه لم يسعهم الا ان يتدارکوا امره باعلانات جلبت الزبن على مخازنهم فعد ثاني الايام في منافعه التجارية وانك لترى كثيرات من ربات البيوت يغسلن غسيلهن ويقضين شؤونهن يومئذ من يوم الثلاثاء ليتمكنّ يوم الاثنين من الاختلاف الى المخازن والانتفاع بما جعلته للزبن في ذلك اليوم من الامتيازات .

ولو شئنا تعداد ما يأتيه الاميركان من ضروب الاحتيال في الاعلانات لضاق المجال فان القوم هناك يعتبرون الاعلانات من ادوات النجاح النافعة شهدت بذلك العادة والحس مثال ذلك ان القوم في الولايات المتحدة يصرفون كميات وافرة من الكعك بحيث يخشى ان ينسوا استعمال الخبز بعد . فكان من رغبة الناس في الكعك ان كثر الطلب عليه وهذا اقتضى انشاء معامل عظيمة لصنعه . وكان الكعك يباع بالمفرق منذ بضع سنين بان يوضع عند البدال في صناديق او براميل مفتحة ويجعل الواحد بجانب الآخر فيجيء الزبون يحس الكعك ويذوق قطعة منه ثم يشتري او ينصرف . فاذا اراد ان يشتري يتناول البائع الكعك باصابعه في العادة ليضعه في الميزان ويكون قد وزن فيه من قبل سكر اوبن او ملبس ثم يأخذه فيضعه في كيس من الورق . وانت خبير بان تناول الكعك على هذه الصفة فيه ما فيه من الاضرار بالصحة والقذارة التي تؤدي الى القرف وهي منافية للذوق قليلة السرعة والغناء . خل عنك بان الكعك اذا ظل على الدوام معرضاً للهواء يفقد طراوته وقضمه . على ان الناس لم يشتكوا من هذه الطريقة

وكان من الاعلانات انها هي التي سدت الخلل واصلحت الحال . غدا التاجر الاميركي لا يكتفي بان تكون بضاعته احسن بضاعة بل اقتضى عليه ان يؤثر في اذهان العامة ويحملهم على ابتياع ما لديه والاعتماد في تناول حاجياتهم عليه . فمن ثم كان على التاجر ان يشفع

جودة بياعاته بفوائد لم يكن يخطر للبتاع على بال اجتناؤها واخذ الباعه يتفننون بكمكهم حتى ادت الحال الى انه يباع الآن في رزمة وزنها محدد . فتبرزم اولا في ورقة غليظة صحية مشمعة تنفذ اليها الرطوبة والهواء ثم يوضع هذا المغلف في علبة من المقوى على شكل لطيف وتلف تلك العلبة بورقة ايضاً وترسم عليها علامة المعمل واسمه . وبهذه الطريقة اصبح الكمك في اميركا آمناً من الجراثيم الضارة والغبار الملوث يحفظ بحاله طويلا ولا تزفد فيه القطط في الليل كما كان من قبل واخذ الباعة يبيعون منه كميات أوفر . وتبارى الباعة في هذا التفنن حتى لا يتخلف احد عن صاحبه ولا يقطع البائع المتفنن على البائع الخامل رزقه وما الداعي الى كل هذا الا الرغبة في الاعلان

ولم يقف الامر في اميركا عند حد بيع الكمك على هذه الصورة بل انه تعداه الى السكر واللبن والشاي والملح والفلفل والارز وغيره . وربما بيع الخبز بعد الآن في ورق خاص به لا تمسه يد ولا تراه عين ولا تؤثر فيه عوامل الحرارة والبرودة . وهكذا تدخل روح الترتيب والنظام والنظافة حتى الى اقتريوت الاميركيين مما يعد خطوة عظيمة في طريق الاتجاه صوب الولوع بالجمال واختيار الاحسن من كل شيء

ومن فوائد الاعلانات انها نفعت في بيع الثياب الجاهزة « الجاهزة » فكان بعض الاميركيين ومنهم الفقراء فقط يلبسون من قبل البسة حاضرة ولا يعمد بعضهم الى الخياطين لان مقادير اجسامهم تختلف بعضها عن بعض وقد لا يوافق الاكتساء بالالبسة المعتادة فقام احدهم وانشأ معملا لصنع الثياب الحاضرة من جميع انواع الطول والعرض والمقدام وتوصل بواسطة الاعلان عن محله بالجرائد والمجلات ان اقبل الناس عليه لان قيمة الثياب الحاضرة تفرق عن التفصيل نحو النصف فاذا وجد كل انسان القياس الذي يطلبه يفضل اخذ « بدلة » حاضرة . ثم زال ما كان علق في اذهان القوم من ان الالبسة الجاهزة لا تلائم كل جسم وغدا معظم اهل اميركا يبتاعون الالبسة المهيأة وزال على الايام ذاك الوهم الذي غرسه الخياطون وغيرهم

وكان من رخص الثياب في اميركا ان غدا الاميركيون غاية في نظافتهم ولبسهم الجديد من الثياب . وحدث ان احد الاميركان نزل الى مدينة هميورغ في المانيا فقال لاحد رفاقه عجبت من اهل هذه المدينة كيف لا يوجد فيهم غني يلبس بزة جديدة . ذلك لانه رأى القوم يلبسون ثياباً لا تماثل في نظافتها وحسن نظامها ما يلبسه سكان المدن الاميركية وبهذا عرفت ان الاميركيين فاقوا الاوربيين في ولوعهم باتخاذ الجميل من كل شيء وان كان هذا الخلق حديثاً فيهم قديماً في الاوربيين . ومثل ذلك قل عن الاثاث

والرياش في المساكن فان الاميركان يستجيدونها ويستحيدونها . واوراق كثيرون من مراقبي سير الاعلانات ان ما كان منها منظوماً يفضل على المنثور لان العامة تطالعها برغبة وينظرون فيها اذا كانت شعراً ولوعامياً اكثر من نظرهم في غيرها . ومن الناس من يقول ان الاعلانات كثيراً ما جلبت ضرراً لان القاريء يخدع بما فيها ويكون فيها مبالغة او خديعة فيبتاع السلعة او الشيء فيبخس او يغبن وانها كثيراً ما اتت بما لا تحمد عقبته .

ولكن القائلين بالاستكثار من الاعلانات يقولون ابداً : ان لكل سبب من اسباب العمل صلاحاً ذا حدين وذكاءنا ايضاً نصرفه في الشر كما نصرفه في الخير . فلا داعي اذاً لتعنيف المعلنين بحجة ما في اعلاناتهم من الخطاء . وليس من العقل ان ينبذ الدين والادب بحجة ان هنالك ناساً من المنافقين الخادعين كما لا يجوز بحال ان يزهد في سهام المصارف (البنوك) لان في بعضها تدليساً وغشاً .

قيل لحياط في فيلادلفيا انك تغش الناس بما تنشره من اعلاناتك التي تخالف اكثرها حقيقة الواقع فقال : ان في هذه المدينة مليون نسمة فلو خدع بما اعلنه عشرة في المائة منهم وا كثرهم يملّ معقلون ويتيسر لي ان ألقى في شراك احتيالي عشرة في المئة منهم اي عشرة آلاف نسمة فأنا في سعة من العيش وبسطة من الغنى . وفاتهُ ان من خدع مرة لا يرجع ثانية في الغالب . واحسن طريقة لدفع الغش عن القراء ان يجعل ارباب الصحف والمجلات اجوراً غالية على الاعلانات التي يلحق منها بالناس ضرر فاذا شكا احد قرائهم من غش ناله من انخداعه باعلان تعوض عليه ادارة الجريدة من مالها لانها هي التي كانت السبب في خديعته .

العامة وضعاف العقول يخدعون في العادة بكل ما حوت الاعلانات . والعامة اكثر الناس . ويليهم في الانخداع النساء ثم العملة . على ان العامة يقل عددهم في اميركا لشيوع التعليم فيها فيقل لذلك المخدعون بالاعلانات الساقطة يوماً بعد آخر . قال مسيو بوالكره في كتابه (قيمة التعليم) وهو الكتاب الذي اشتهر بين الخاصة والعامة : لا يعرف كم نفع البشر الاعتقاد بعلم الفلك . فان مُدبّر الفلاح كبلر وتيخو براهي (١) فذلك لانهما كانا يروّجان على السذج من الملوك اخباراً من المغيبات بنيانها على قرانات الكواكب . ولو لم يكن اولئك الامراء على جانب من التغفل يصدقون بما يُلقى عليهم لكنا بقينا الى اليوم

(١) الاول فيلسوف المانى مات سنة ١٦٣٠ م ولقي النداء في نشر علمه وله قوانين في الفلك اخذ عنها نيوتن الفلكي الانكليزي فقال بالجاذبية العامة . والثاني فلكي سويدي اخترع مذهباً في الفلك يخالف مذهب بطليموس وكوبرنيك مات سنة ١٦٠١

نعتقد ان الطبيعة تابعة لهوى النفوس وظلمانا تتسكع في بيداء الجهالة . وهذا القول ينسحب مثله على منواله فيقال : لولم يكن للاميركيين رغبة في اكتساب المال ولولم يتنافسوا فيه ويتفاخروا في احرازه ولولم يكونوا متحرفين ربما كنا رأينا القوى السامية في الانسان تسقط في المزاحمة مع القوى العملية النافعة الصرفة في جنسنا الانساني وكنا نسير في الشؤون المادية على وجه سمج .

فالصنائع هي زخرف الحياة ولا يكون الزخرف الا مع الغنى ولا يحصل الغنى في هذه العصور الديمقراطية البعيدة عن العبودية الا بالتفاني في اصطياد الدرهم والدينار وقد ينتج من شر كبير خير كثير ومن الولوع بالمال في الاتجار الادب والفنون اه

نظام الاكل

معربة عن مبحث للدكتور فلوري في « المجلة » الفرنسوية .

سوء الهضم اكثر الامراض انتشاراً ولا سيما في الطبقة المستنيرة من الناس ومسبباته كثيرة فليست اسبابه الاخلاقية هي الغم والملل فقط بل الاهتمام بالاشغال والاعمال .

واذا تيسر للمصاب به ان يسلي نفسه ويبدل محيطه الذي يعيش فيه وان يستحم في حمامات البحر والنهر وان يصرف زمناً في الخلاء يزول هذا المرض موقتاً ثم يعود الى حالته عند عودة صاحبه الى معاطاة اعماله

ولطالما نصح الطبيب للمصاب بسوء الهضم ان يتخلى عن افكاره ويتناسى ما يشغل ذهنه ولكن هذه النصيحة قلما عمل بها الا اذا كان في خلال الطعام . ولقد ابان بافلوف الفسيولوجي الروسي المشهور انه ينبغي تناول الطعام بسرور ليجود الهضم . فاذا كان صاحب هذا المرض مشتت البال وقضي عليه ان يتناول طعاماً لا طعم له ولا لذة فيه لا يسيل اللعاب وعصارة المعدة ولا يعمل الهضم عمله وعلى العكس اذا استحسن المصاب به محفة من الطعام فانه يسيل لعابه في فمه وتحسن عصارة المعدة ويتم الهضم بسهولة .

يقولون ان الطاهي اذا اجاد الطبخ يحمل الآكل على ان يتناول من الطعام فوق حد الكفاية وهذا غلط فان الناس لا يفكرون بان امثال هذا الطاهي ينتفع بغفلة المصاب بسوء الهضم ويستدعي سيلان اللعاب والعصارة . وينبغي ان يكون الطعام تام النضج على ان ذلك لا يكفي اذ الواجب على الآكل ان يتناوله كما ينبغي على الوجه الذي ينبغي . واننا معاشر الناس باسرنا نأكل اكلاً رديئاً اي ان طريقتنا في تعاطي الطعام ليست صحية فلا نرى حرجاً في الاسراع بتناول كمية كبيرة من الطعام على المائدة .

وجوب التمهل في تناول الطعام

من الآفات المنتشرة كثيراً تناول الطعام بسرعة فان الوقت يقضي على بعض الناس ان يسرعوا في خطبهم وقضيهم لان دواعي اعمالهم تبعثهم على ذلك . وبعضهم وهم اهل المزاج العصبي يجعلون في جميع الاعمال و يستحيل عليهم ان يقوموا بالتأني في معاطاة عمل لم فتراهم يقضون اعمالهم كلها بسرعة و يصدم حركاتهم بعضها بعضاً وتأخذ افكارهم بعضها برقاب بعض ترى كثيرين منهم من اذا حفزتهم الشهوة للطعام وجلسوا الى الخوان يشعرون بحاجة شديدة لتناول الاكل فيزدردونهُ ازدراداً دون ان يجعلوا في وقتهم متسعاً للمضغ وقصاراهم ان يخضموا طعامهم مسرعين . كأنهم يرون الغذاء ضرباً من ضروب السخرة فيأبون التريث والتلكؤ، فلا يكاد يفرغ ما بين ايديهم من الصحاف حتى يطلبوا غيرها بالحاح وسرعة .

وقد اطلقت اللغة ألفاظاً متنوعة على الاكولين من مثل الاسترواط والذَّم والشرَه اما الطبيب فان هذه الاسماء تتساوى في نظره و يراها كلها بنتائجها فان النهم وسرعة تناول الغذاء على اختلاف حالاتها تؤول الى نتيجة واحدة من تشويش الصحة . ذلك ان العصارات الهاضمة لا تؤثر التأثير الحسن في الاطعمة التي لم يحسن مضغها فان الغذاء يتخمر ويحدث اضطرابات و بوازاً فاسداً وهي من الاسباب الفعالة في حدوث داء المفاصل .

تزول هذه الاضطرابات بأسرها اذا عقد المرء العزم على ان يحسن المضغ باشدريج وقد نصح الدكتور فلتشر الاميركي باجادة المضغ على مهل وبتقليب اللقمة بحيث تستحيل كالمرق وتمتزج باللعاب اي امتزاج (١) ومن رأيه ان يبقى اللبن والحساء والخمر وكل شراب مغذٍ مدةً في الفم قبل البلع . واللقمة اذا جزئت وطحنت على هذا النحو تصبح كالمادة القلوية باللعاب السائل . وقد قال فلتشر ان هذه القلوبات ضرورية لهضم الطعام ومما ينفع في هذا استعمال الفواكه الحامضة مثل التوت الافرنجي (فريز) والرياس (عنب الثعلب) . وقد تبين لهُ ان الهضم سهل بهذه الطريقة فقلت جراثيم الامعاء ولم يبق فيها غازات ولا فساد وقلت رائحة المواد البرازية وبقيت في الامعاء مدة اطول وقلَّ مقدارها وثقلصت الامعاء . والمتمهل في طعامهِ يشعر بزيادة المسرة عند الغذاء وتطيب نفسه لتناول طعام بسيط و يتبدل سير صحته فلا تعب في الجسم ولا في الفكر غبَّ الطعام ولا وجع في ولا اوجاعاً مجهولة ونقل اعراض الرئية والنقرس بل تزول وهكذا الحال في ضعف المجموع العصبي فانهُ يتبدل و يتضح صاحبه ويحسن نظره في المستقبل . لان جميع هذه الاعراض

(١) شاعت طريقته هذه في بلاد الانكليز السكسونيين انكلترا واميركا شيوعاً كثيراً حتى عدَّ القائلون بمذهبه والسائرون على خطته بثلث الالوف

السيئة وكثيراً غيرها هي ولا جرم ناشئة من تسمم الانسان ببدده وتناوله من الطعام فوق طاقته على طريقة مختلة . وان كثيراً من الامراض المزمنة في الشيخوخة تحدث من ذلك فاذا جاد المضغ وحسن تناول الطعام لا يحدث من سوء اثرها ما يحدث . فليس من الضرورة لمن اراد الاحتفاظ بشبابه ان يملأ معدته كما قال الاستاذ متشكوف باللبن الرائب او بحسب رأي القائلين بالتغذية بالنباتات ان يمتنع الانسان عن اكل اللحم بل يكتفي المرء بان يحتاط لنفسه احتياطاً واحداً وذلك بأن يضغ بتأن فاذا فعل ذلك يسعده الحظ فيعمر مئة سنة .

نعم ان تحمس اتباع فلتشر لا يخلو من غلو فقد ابان جان فينو في كتاب فلسفة طول الاعمار ان احسن ما يداوى به المرء ليبلغ اقصى حدود الشيخوخة ان لا يكون فقط معتدلاً في كل شيء بل ان يكون من أسرة معمرة يبلغ افرادها المئة سنة . وقد اعترف الاطباء في كل عصر بضرورة اطالة المضغ ليكون الهضم على اصوله . وانت ترى ان فلتشر لم يأت امراً جديداً بل جعل من هذه الوصية الشائقة لجميع المصابين بسوء الهضم قاعدة يسيرون عليها وسنة يتبعونها .

وقد اثبت المستر سنيدان استاذ الفسيولوجيا في كلية يال الاميركية قدر هذه الوصية فاخذ ينظر في طعام الاساتذة والتلاميذ والجند وقسم جراية كل منهم الى نصفين وجرب ذلك بالدقة اشهراً واخذ يسجل على وجه الصحة ما يدخل الجوف وما يخرج منه . فلوصل اقوياء البنية بمجرد تناولهم الطعام بتأن ان يهضموا هنيئاً مريئاً نصف الطعام واحياناً ثلثيه وقللوا خصوصاً من معدل اللحم لانه هو الغذاء الذي يهيج بالا كثر تركيب التوكسين فقويت اجسامهم ونشطت حالتها البهجة واخذوا يتمتعون بصحة اجود من صحة اخوانهم الذين لم يسيروا على سيرتهم .

ينبغي لقليل كمية الغذاء

انا لا نسرع في تناول الطعام بل نكثر ايضاً من تناوله فان هذين النقصين متلازمان بالضرورة . ولا بد لمن يسرع في تناول اكله ان يتناول كمية كبيرة من الطعام لان جزءاً من طعامه لا يهضم وكلما اكل زادت شهوته ونهمه ولا تنتهي به الحال الى الشبع ولقد عرف القدماء مضار الاكثار من الطعام فضربوا لذلك الامثال فاشتهرت عنهم . وكان اول مؤلف اشاع ذلك بين الملا ودعا الى عدم الاكثار من الطعام لوجيي كورنارو (١٤٦٧ — ١٥٦٦) فان هذا الشريف البندقي (نسبة لمدينة البندقية) بعد ان قضى شبابه في الفسق طفق في الاربعين من عمره عقيب مرض شديد عواه يجري على ترتيب

مدفق في معيشته على نحو ما يجري الرهبان النساك فاخذ يقلل كل يوم كمية طعامه شيئاً فشيئاً بحيث انزله الى ٣٤٠ غراماً من الطعام الجامد و٤٠٠ غرام من الخمر ونصب له ميزاناً يتحقق به ما يدخل معدته وما يخرج منها . وهكذا تقدم هذا السري غيره بقرون في الاقلال من الطعام ولكنه لم يذكر الطريقة التي كان يضع بها فقويت بذلك صحته كثيراً وفي السبعين من سنه حدث له حادث مريع من عربة فتقصفت اعضاؤه وتهشمت جمجمته فحكم الاطباء بانه هالك لا محالة ولكنه لم يلبث ان شفي . ولقد اراد ان يزيد طعامه بعض الشيء فمرض وعاد الى التقشف في اكله ولم يعد يغضب ووجد راحة في فكره واصبحت اخلاقه دمثة وحالته الى النشاط والبهجة . وفي الثالثة والثانين من عمره وضع كتاباً ذكر فيه الطريقة التي يتبعني الجري عليها لتطول الحياة بلا اسقام ونشر ايضاً ثلاثة مصنفات في هذا الموضوع ومات في السابعة والتسعين وقال بعضهم في الثامنة بعد المئة .

ومن عهد هذا الرجل كثرت الامثلة المشابهة لحاله . وانا اقتصر منها على ايرادا حدثها فأقول ان الرحالة بوحنا شاركو الذي نزل من السفينة في رحلته الاخيرة الى القطب الجنوبي في جماعة من رفاقه ليتوغل في الجنوب لما كان توزيع الطعام موكولاً اليه اخذ يعطي كل فرد من رفاقه نصف جرايته بدون ان يقول لهم انه نقصهم من طعامهم فلم يشك احدهم جوعاً وكانوا على ما يناله من التعب مسرورين ولم يمرضوا وبذلك تيسر له ان يطيل امد هذه الرحلة حتى اذا كانوا في العودة وقد بقي معه قسم عظيم من المؤن انشأ يعطيهم الجراية تامة اي الجراية المظنون انها ضرورية للانسان فاصيبوا كلهم اذ ذاك بسوء الهضم .

وهنا سؤال وهو كم يقتضي للمرء من الجراية ليعيش على اقل تقدير . فاقول ان ذلك يرجع الى امور منها قامة الانسان ووزنه ثم البلاد التي يعيش فيها والجنس الذي ينسب اليه والعمل الذي يتعاطاه . وقد قام التواتر بتجارب مدققة للغاية في هذا الباب فاخذ رجلاً زنته من ٦٠ الى ٧٠ كيلو غراماً وكان يعيش في حرارة تبلغ ١٧ درجة ويتمتع من كل عمل لا جدوى فيه وجعله في غرفة ووزن ما يدخل اليه وما يخرج منه بادوات كثيرة متنوعة كما وزن تنفسه وقدر جميع اعماله واعطاه من الغذاء مايولد فيه الحرارة اللازمة لنشاطه فرأى انه في حاجة الى ٢٢٥٠ من الكالوري في كل ٢٤ ساعة هذا اذا كان لا عمل له اي الى ٣٣ من الكالوري في كل كيلو غرام (١) فالشبان يحتملون الافراط في التغذية فلا يحدث

(١) اقل ما يقتضي لمن كان في راحة تامة بحسب رأي الاستاذ غوتيه ٢٠٠٠ من الكالوري تقدم على نسبة ٨٢ غراماً من الالبومين و٥٠ غراماً من الدهن و٣٨٠ غراماً من هيدرات الكربون . وارتأى بعض الفسيولوجيين انه يكتفى باقل من ذلك . وذهب الدكتور

من ذلك فيهم سوى زيادة في حرارة الجسم وعرق غير اعتيادي وحاجة لعمل غير معتدل وليس الامر كذلك في الشيخ والرجل الذي بلغ اشده وفي جميع من لم تكن بنيتهم على حالة حسنة فان الافراط في تناول الاغذية يحمل المعدة فوق طاقتها فيشق عليها ويرهقها من امرها عسراً . فاذا لم يتأت الهضم يحدث تخمر وتسمم ذاتي فتكثر الاملاح والحامض البولي والمواد الحامضة ويصاب المرء على الزمن باحتقان الكبد وتغير الكلى والقمول الى ثخم فيكون بذلك مصاباً بوجع الاعصاب والمفاصل والسويداء وغيرها .

كيف يتمكن المرء من الاقلال من الطعام ومن تناوله بتأن

تبين لك مما تقدم ان من مصلحة الانسان ان يعدل عن طريقة عيشه ولا يقتضي ذلك كبير عناء ويكفي في هذا الباب اقناع المرء بذلك ليتحول اليه . على انهُ من المحقق صعوبة التغلب على عادة سيئة حتى ان المصاب بسوء الهضم ليعترف بانه يسرع في طعامه ويود اصلاح نفسه ولكن ارادته وحدها لا تكفي في مغالبة هواه فتراه يحتاط في اول جلوسه الى المائدة ولكنهُ لا يلبث ان يعود الى طبيعته فتتغلب عليه فيأخذ في القطع والبلع . ونظن ان مداواة هذا النقص تكون باعطاء اطعمة منوعة كثيراً لتقدمها توابل مطبوخة كحساء الجلبان او العدس والخذيعة (طعام من لحم او سمك مخردل) وربما نصحوا باستعمال العلك Masticateur فيهيج اللعاب والعصارة المعدية على الغذاء الا انه يلزم للعاب من الوقت ما يتمكن معه من السيلان . ولذلك اقتضت الضرورة ان تكون البداءة بالاكل لقماً صغيرة وان يمضغ بتأن حتى اللحم المفروم والحساء بل السوائل من اللبن والمرق والشراب .

ويرجو بعضهم ان يعالجوا قلة سيلان اللعاب بان يمضغ المرء بعد الاكل قطعة من الصمغ مضغاً طويلاً . فقد اعتاد الاميركيون هذه الطريقة وما هي الا ملطفة ومليئة

بوردي الى انه يلزم من ٦٠ الى ٨٠ غراماً من المواد الزلالية (البومونيد) ومن ٥٠ الى ٦٠ غراماً من الدهن ومن ٣٣٥ الى ٣٠٠ من هيدرات الكربون وافقه على ذلك الدكتور مورل من تولوز . والغالب انه توجد فروق عظيمة لا يحسب ثقل الجسم والعمر بل يحسب المزاج وربما امكن تخفيض عدد الكالوري الى ٢٠٠٠ غرام في البلاد الحارة عند بعض الامم المتقشفة كالحبشة والهنود واليابانيين . ولا يفوتنك ان الادهان يمكن الاستعاضة عنها بهيدرات الكربون وعلى العكس والمواد الزلالية هي لازمة ضرورية في الغذاء ولا يمكن تنقيصها الى اقل من ٨٠ غراماً . ويستدعي العمل الطبيعي زيادة في كمية الكالوري تختلف بحسب شدته ومدته فيصل صاحبه من ٣٥٠٠ الى ٥٠٠٠ وربما الى ٦٠٠٠

موفقاً فان اللعاب يسيل متأخراً كثيراً فاذا وصل الى المعدة يمتزج مع السوائل وعصارة المعدة فيفقد جزءاً من قوته .

وهناك حيل يحتال بها لاصلاح حال الاكولين وزجرهم عن الشره فاذا كان الاكول يملأ معدته ليشبع فوق طاقته فنصح له اولاً ان يقطع اللحم والخبز قطعاً صغيرة كالقطع للاطفال وان لا يتناول منها سوى لقمة دفعة واحدة وان يتناول الحساء والبقول الناشفة بملعقة صغيرة وان يعنى بان لا يأخذ الى فمه شيئاً منها الا اذا بلع الملعقة الاولى برمتها . وتيسير معالجة سوء الهضم بتعريض صاحبه على الاقلال من انواع الاطعمة كثيراً كأن يراد على ان يتناول فطيراً فيأكل منه على نيرة واحدة وهو طعام قليل اللذة ولكنه من اكثر الاطعمة هضماً ولا نرى هنا تعداد الطرق المختلفة التي يعمد اليها بعض الامريكان فان بعضهم يتناولون غذاءه مقتصرين فيه على الحبوب وبعضهم على الثمار وبعضهم يأبون ان يتناولوا طعاماً دخل النار .

ومما يرتاب فيه ان تكون امثال هذه التدابير في الاكل صالحة في ذاتها وعلى كل فهي تقلل من الشراهة . ولهذه التدابير في نظر الفسيولوجيين عائق عظيم وهو ان المرء يتناولها بدون لذة على حين قد قلنا آنفاً ينبغي لجودة الهضم ان يستحسن الانسان ما يتناوله من الطعام . ينقضي ان يكون طعام المصاب بسوء الهضم بسيطاً ولكن ينبغي ان يكون لذيذاً محضراً احسن تحضير فاذا استحسنه المريض تنتهي به الحال ان يتلطه ببطء واذا رضي بان يقدم له الطعام على مهل وان يفصل بين كل صحفة بحديث مفرح فيكون ذلك من حسن طالع المصاب بسوء الهضم اذ يغدو معتدلاً في شرهه .

واذا لم يصلح المعود نفسه على رغم ما تقدم فله طريقة اخرى ينصح بها فليتشر قال : اذا بلع الانسان الطعام وفيه بضعة اجزاء لم تسحق كل السحق تقف بعد الحلق اما الجزء السائل من اللقمة فانه ينزل الى البلعوم وعندها يستدعي ذلك عملاً جديداً من البلع لتسييرها الى مقرها . خذ مثالاً لذلك حُلبة (قرصاً) من الفاكهة فامضغها وابلعها فان التفل يستحيل باللعاب الى مواد نشائية (هيدرات الكربون) نصف سائلة تمر بعد ذلك في البلعوم اما قشر الثمار و بزرها فانه يقف قليلاً في الحلقوم (١) وليس اسهل عند ذلك من ابداء

---

(١) اوضح المستر فوستر هذه القضية بان فرّق بين طبقتين من الحيوانات الاولى كالفرس مثلاً ينبغي لها ان تمضغ طويلاً لبلع حساء نصف سائل والاخرى كالكلب فانه يأكل كل لقمة صلبة ولا يكاد يمضغها و بذلك تبين ان حلقومهما مختلفان . فان للفرس جلدة في سقف حلقه الى العضلات الضخمة ولهاته متسعة ومدورة اما الكلب فعلى العكس فان جلدة سقف

حركة يعاد بها الطعام الى الفم بدون قيء وان تتعاور وهذه الاجزاء التي لم يحسن المرء سحقها ويعاد مضغها حتى لا يعود يحس بطعمها اصلاً فان هذه الطريقة التي ارتآها فلتشر وتحققها بذاته هي اسهل على الاجزاء من ابقاء الطعام ريثما يضغ بتمامه . وهكذا ينبغي استعمال الحيل للتغلب على العادات القبيحة فان الارادة مهما بلغ من قوتها لا تكفي اذا لم يساعدها الذكاء .

الاطعمة السهلة الهضم

يقول فلتشر ان كل من بلغت به الحال ان يأكل قليلاً بتأن لا تأتي عليه بضعة اشهر حتى يتمكن من تناول كل شيء ويستطيع ان يهضم الحصا فينبغي له ريثما يسعده الحظ بهذه النتيجة ان يعنى كل العناية باختيار الاطعمة السريعة الهضم . وقد اختلف المؤلفون في معنى سريع الهضم على طرق شتى فقالت فئة : هو كل طعام يجري بسرعة الى الاحشاء وعلى هذا النظر قرروا لكل طعام الوقت الذي يصرفه في المعدة بيد انه يمكن ان يمر في الاحشاء وهو غير مهضوم وغير قابل للتعديل . وينبغي ان ينظر كل طعام سهل على الهضم لانه يستحيل في الحال الى كيموس متشابه وان من الصعب تحقيق امر هذه الكيموسية . والافضل ان يعمد في ذلك الى التعريف العامي وهو ان كل طعام سريع الهضم اذا هضم بدون ان يدركه الانسان وكل طعام لا يهضم هو الذي يحدث ثقلاً وانتفاخاً وتجشؤا .

وقد وضع الكيماويون والفسيولوجيون في كل زمان طبقات للطعام على قابليتها للهضم وعدمه فلم يكن بحثهم الا تقرير الراي الشائع . وانا لا نذكر هنا ما وضعوه من القوائم والفهارس لانك تجدها في جميع المقالات الصحية بل نكتفي بالقول بانه لا يمكن تطبيقها على جميع المعمودين بدون تمييز . بيد ان بعض الناس على لفافة معدهم يهضمون بعض الاطعمة الصعبة الهضم . دع عنك الاستعداد الشخصي الذي لا يحسن الاطباء تفسيره ويزخرفونه ستراً لجهلهم باسم مفخم فيدعونه (الاديوسانكرازيا) وهو الميل او الكراهة لبعض الامور وينشأ من استعداد خاص بالمزاج . ثم اني ارى من الاشبه ان يقال ان هذه الاطعمة قابلة للهضم لانه يلذ المرء تناولها ولا ينبغي ان يستنتج من هذا ان كل طعام يروق في الذوق يكون سهلاً على الهضم فان عكس ذلك هو المألوف واحسن ما يجدر في هذا الباب تعاطيه ان يثق المرء باختباره الخاص . وعلى كل فان بعض الاصناف من الغذاء سيئة الاثر في جميع المعمودين وهي الاطعمة المعجنة والاطعمة الدسمة . فان الفلفل الاحمر والبهار والخردل

حلقه خالية من الالياف العضلية تغلق ما وراء الحلق كما تغلق الصدفة فيكون منفذا الحلقوم عند البلع متسعاً واللهاة حادة ورفيعة فبنية حلقوم الانسان تشبه حلقوم الفرس .

والتوابل المصنوعة في الخل والطرطور الانكليزي (Sauces) تهيج شهوة الطعام وليس فيها سوى تهييج المخاطيات فينبغي الامتناع عنها وكذلك الحال في الادوية المفتحة (كالمياه المعدنية وغيرها) والابسنت والخمر فانها كلها تقاس على ما تقاس عليه تلك المشهيات اما الاطعمة الدسمة فان فيها عائقاً آخر لان الدهن يتحد مع مخاط المعدة فيمنع عنها البروز ويقاوم هجوم الاطعمة بالعصير المعدي .

ومن المبادي المقررة التي ينبغي للمعود الجري عليها ان يكون طعامه لا دسم فيه ولحمه لا دهن فيه وسمكه كذلك وان تكون الثمار التي يتناولها غير زيتية . وهنا اعتراض وهو انه كيف يتأتى تحضير الاطعمة اذا مُنع الطاهي من وضع شحم الخنزير والدهن و (السلسات) الدسمة فان معنى ذلك الضرب على ايدي الطاهي بحيث يتعذر عليه ان يحسن طبخ الطعام فيكون من ذلك على المعود اشق من مرضه على انه يمكن استخدام مادتين دسمتين سهلتين على الهضم ألا وهما زيت الزيتون والسمن فان زيت الزيتون الخالص يحسن اكله ولكن ينبغي ترغيب النفس في طعام الزيت . وسكان الجنوب من فرنسا عرفوا بهذه المزية. وكذلك السمن فانه الغذاء الدسم السريع الانهضام على شرط ان لا يكون مطبوخاً فاذا كان السمن نيئاً يكون منه مستخلب وقطيرات دقيقة تعوق العصارات الهاضمة عن عملها كثيراً واذا كان مطبوخاً يسوء هضمه كشحم الخنزير

فلا يضاف السمن على الاطعمة المختلفة الا اذا رفعت هذه عن النار وتم طبخها وهذه الطريقة التي اعتادها مهرة الطهاة لان السمن اذا أُذيب على هذا الوجه يحفظ طعمه . اما السمن النباتي المستخرج من الجوز الهندي الذي اخذ يدخل المطابخ تحت اسماء متنوعة فانه يهضم كالسمن الحيواني

واراني في الختام قد مرنت على الكلام في فن الطبخ بكتابة هذه المقالة على انها ليست فصلاً في الفسيولوجيا بل هي درس في الطبخ اردت الخوض فيه واردت ان ابين ببساطة ان لعناية المصابين بسوء الهضم علاقة بهذا الفن ولو كنت اشكو من هذا المرض لعمدت الى طبيب ممن عرف بشرهه واخذت رأيه فيما يقلقني لي الجري عليه فانهُ يكون ولا جرم ابن بجدة هذا المرض ولكن من الغلو ان يغلب مجموع هذه الصفات من رجل فرد

نبأ من الصين

لأحد علماء الفرنسيس

بعد ان ثارت ثورات البوكسر من دعاة الفتنة في الصين وصار سبيل للاوربيين ان يتداخلوا في شؤونها عمدت ان تحذو حذو اليابان في ابدال اوضاعها باوضاع غربية وتصبغ بلادها بصبغة الحضارة الاوربية فكان منها ان صرفت وجهتها الى التعليم . وبعد اربع سنين الغت نظام التعليم القديم وطريقة الامتحانات العتيقة فعد ذلك انقلاباً عظيماً لا في السياسة بل عدّ ضربة قاضية على كونفوشيوس وما لقيه بين ابناء الصين منذ القرن التاسع من النفوذ والتأثير فاصبحت تعاليمه في المعمول بها واساس كل تعليم في البلاد الصينية فكان يتحكم في جزئيات الصينيين وكلياتهم ولم يعهد ان كان لبشر مثل هذه السلطة على مثل ذي القوم في عدده وان دامت سيطرة انسان قرونًا لا يجرأ احدٌ على نقضها . فقد كان قبل المسيح بستمائة سنة . ولد في إمارة « لو » التي هي اليوم ولاية « شانغ تون » وهي للالمان تعد جزءاً من « كياوتشو » . نعم لم يعهد في تاريخ البشر ما يشبه هذه العبادة وهي مدنية دينية يعبدها رجل بسيط ويعبده شعب لا يحصى مدة ٢٤ قرناً في الشرق الاقصى . ولذلك لم يجسر احد من اتباع هذا المذهب على الغاء الطريقة القديمة في الفحوص وحذف اسم كونفوشيوس من المدارس سيما وصورته في كل صف ليسجد لها التلميذ والاستاذ على حد سواء . فكان من هذا الانقلاب ان استعيض في المدارس عن تعليم جميع العلوم وجعلها فرعاً واحداً يجعل كل فرع منها مختصاً بفئة من الناس كأن تكون الاولى مدرسة الحقوق والاخرى للطب والثالثة للعلوم السياسية والرابعة للصنائع والفنون وغير ذلك وكان يكفي في نيل الطالب لشهادة المدارس الكلية ان يفشي شيئاً في الادب يأخذ موضوعه من كتب كونفوشيوس و يطلب اليه كتابة شيء في الشعر وكانت تفتح ابواب المناصب والمراتب امام من يحسن ذلك من الطلاب . فعرفت الحكومة عقم هذه الطريقة في التعليم وانشأت مدارس خاصة دعتها « مدارس العلوم الحقيقية الثابتة » وانشأ الامبراطور نظارة للمعارف العمومية ترتب احوالها كما هو الحال في الغرب وستقسم تلك المدارس الى ثلاث طبقات ابتدائية ووسطى وعليا . وقد رخصت الحكومة لبعض الولاة ان ينشئوا في عمالاتهم مدارس مجانية يقرأ فيها التلاميذ نصف النهار و يتمكن الفقراء في خلال ذلك من الدراسة في الصباح والعمل لتحصيل قوتهم بعد الظهر وهذه المدارس اشبه بمدارس البالغين في فرنسا والفرق بين هذه وتلك ان هذه تفتح في المساء وتلك تفتح في الصباح ذلك لان الصينيين

لا يسهرون في الليل الا من يتعاطى الافيون منهم وما عداهم فانهم ياكرون منامهم حفظاً لصحتهم وحرصاً على الاضواء وصرف شيء منها عبثاً

ولقد كان اصلاح التعليم في الصين ونشر المعارف بين طبقات العملة او الفقيرة من المستحيلات الا بتسهيل طريقة الكتابة وكانت هذه من الابهام والالتباس بحيث حالت دون العامة وتلقي المعارف الادبية وغيرها . فرأى الامبراطور من الحكمة ان يصدر امره ليستعمل خط جديد صيني يتألف كله من خمسين حرفاً و يسهل اتقانه في شهرين . و بفضل هذه الطريقة الجديدة اصبح الآن ثلثمائة الف صيني يعرفون القراءة والكتابة . وقد نشر اهل العلم جرائد تطبع بهذه الحروف الجديدة ليتمكن المتعلمون من استخدام هذه النعمة ولذا اصبحت نتائجها واعدة من الآن

ادركت الصين بعقول رجالها الناقبة كل الادراك ان نشر التعاليم الديمقراطية بين الغوغاء من اهلها لا يكون الا بواسطة الصحافة التي تتناولها العقول كافة وان الطريقة الحقيقية في ازالة غشاوة الاوهام عن ابصار العامة وإزالة ما علق في نفوسهم عن الاجانب ان يطلعوهم على اوضاع الغربيين وكانوا يرونهم من قبل اعداء لا يميلون الا الى السلب ولا يظأون الا لسفك الدماء و يطلقون عليهم اسم « شياطين الغرب » . واذ اخذت الصحف تستخدم الخط الجديد فستحارب هذه الاوهام وتنتهي بالتغلب عليها و إزالتها من العقول وهذا هو الرأي الشائع عند من يرون اختطاط خطة النجاح

يطمع الامبراطور ان يبث العلم في عقول رعاياه وهذا الامر موقوف على الاكثار من المدارس والمدارس تحتاج للانفاق والصين يعوزها المال كما قد تمس الحاجة اليه في كل مملكة فلم يرَ ابن السماء بدّاً من استوكاف اكف الطبقات كلها وراح يفتتح الاكتتابات العامة وجعل لكل من يؤدي الف فرنك لقب شرف او وساماً ومن ادى من عشرة آلاف الى خمسين الف فرنك يحق له ان ينشيء وسط الشوارع العامة قوس نصر من الحجر يخلد به اسمه وعلى نسبة عظم المبلغ المعطى يكون البناء التذكاري جسيماً . وهذا من غرائب الحيل الباعثة على الطمع النافع . فالصيني يحب باجداده ولذلك تراه يتعاظم الا ان اذا تخلد ذكره كما تخلدت اسماؤهم ويكون له بهذه الطريقة باب يثبت به اخلاصه لبلاده بل يؤيد به مجده وأعطياته ورتبا كان في الاوربيين من تطمح نفوسهم الى هذا التمايز من اقامة اقواس نصر من هذا النوع بعد ان كان الملوك حتى اليوم مستأثرين يجدها دون سائر الناس .

ومما اضافه ابن السماء على تلك الاكتتابات لانشاء المدارس نزع ملكية الاراضي والعقارات لاجل المنافع العامة فصدر امره الى المعابد التي لم تقم على نفقة الحكومة ولا

اعترفت هي بها ان تدفع مداخيلها الى خزانة الدولة لتخصص للمدارس . وعلى هذا الفكر احالت الحكومة الصينية قصر امبر توان السابق الذي اثار ثورة البوكسر الى مدرسة حربية خاصة بتعليم الامراء والاشراف وابناء الحكام من اهل الطبقة العالية وهذا القصر في بكين في المدينة التاتارية . ولا بدَّ من الملاحظة هنا ان انشاء هذه المدرسة الحربية هي على طرفي نقيض مع تعاليم كونفوشيوس الذي ينفي الحرب ويحظره على الصينيين ويعده اسوأ الجرائم . ولقد كان من كره هذا الفيلسوف ومقاومته للحروب ان اصبحت بهالمملكة السماوية بلا مدافع يدفع عنها عادية اعدائها فعرف الصينيون اليوم بما لقنتهم اياه يابان من دروسها الحاجة الماسة في الشرق الاقصى الى تأليف الجيوش المنظمة القوية القائمة بحض تجار بهم واستعدادهم ليقاوموا بها الدخيل الذي لا يرمي الا الى تجزئة بلادهم واكتساح ارضهم . وقد شعروا بان خضوعهم لتقاليدهم ولدينهم قد اضرَّ بهم فقضى عليهم الحكيم كونفوشيوس . بيد انهم لم يعصوا عليه ولم ينزعوا حبه من نفوسهم بل تركووشأنه واخذوا ينظرون في امرهم من طريق آخر . وانشأت الحكومة بجانب نظارة المعارف العمومية نظارة اخرى للمعارف مهمتها الاولى ان تؤسس في المملكة كلها مدارس للتجارة والزراعة وتربية الدود والغابات وكان الصينيون على مثال قدماء الرومان يحتقرون التجارة ويعدون اهلها من السافلين في الهيئة الاجتماعية ولا يرى الصينيون الا الطاعة العمياء لما رسمته شريعة كونفوشيوس لان هذا لا يحترم الا الادباء ورجال الدرس والبحث فاصبح ما كان يحول دونهم ودون الترقي قروناً كثيرة جائز العمل مرخصاً باتيانه

وكانت الصين من قبل محرومة من المكاتب العامة على مثال خزائن الكتب في اوربا فلم يظهر لاحدهم منذ عهد كونفوشيوس ما ينأى عن المكاتب من الفوائد للمدنية فأسسوا اليوم مكاتب جمعوا فيها جميع الكتب المنقولة الى اللغة الصينية التي نشرت في ممالك كثيرة في العلوم العملية والمعارف النافعة التي من شأنها ان تساعد الصين على النهوض وانشأت الحكومة مكاتب للترجمة رسمية في جميع المدن الصينية الكبرى . اما المجلات فليس غير المرسلين الكاثوليك والبروتستانت من يعنى بنشرها في الصين حتى الآن وهي تبحث في الموضوعات الدينية وتشغل قليلاً من صفحاتها بالابحاث العلمية وقد ارتقت الصحافة كثيراً في الصين وفيها اليوم كثير من الجرائد اليومية والجرائد التي تصدر ثلاث مرات في الشهر وادرك الصينيون منذ كارثة البوكسر ان الصحافة من المواد الجوهرية في الحياة العامة ولذلك ترى كل من تعلم القراءة منهم يقرأ الجرائد حتى الامبراطور وجميع الجرائد الجديدة كلها تقريباً تكتب على مثال جريدة « سهان باو » التي تصدر في مدينة شنغاي وهي التي اسست سنة

١٨٦٨ على يد شركة صينية اوروبية وذرع هذه الصحيفة الكبيرة متر وثلاثون سنتيما ذات ثماني صفحات طولها ٣٠ سنتيمترًا وعرضها ٣٠ وتباع بعشرة «سابيك» وهي تعادل خمسة سنتيمات

وترى المقالات في هذه الجريدة التي يكتبها الادباء العارفون من اهل الكفاءة جيدة في موضوعاتها منوعة الاساليب وهي في العادة مفعمة بالاحساس الطاهر ويظهر استقلال هذه الصحيفة مما تنصح به للحكومة وبما تدل عليه من الفساد المستحوذ في الادارة وبما تعلقه على السياسة الخارجية وقد تكون تعليقاتها سديدة . وفي هذه الجريدة مجال طويل للبحث في الشؤون المختلفة وترى رواد الاخبار في الصين على غاية من المهارة يدخلون في كل مكان ويعرفون كيف يحدثون غيرهم ويروون عنهم الاخبار وهي طريقة اخذوها عن اليابانيين . واحسنوها وترى الصحف الاربع الاخيرة غاصة بالاعلانات التجارية صينية او اجنبية وفي اعلانات الاجانب حروف باللغات الافرنجية لالفات انظار الصينيين وورق هذه الجرائد معمول من ورق الخيزران «البامبو» ولذلك تراه رقيقاً للغاية ويطبع من وجه واحد ويترك الوجه الآخر ابيض لانه شفاف يرى ماوراءه لانه اميل الى الصفرة على لون ورق الجرائد وطبعها يمكن تغييرها في بعض الاحوال على نحو ما يفعل ارباب الطباعة اذا مات احد الاسرة المالكة فتطبع الورقة التي تذكر الامر المعلن بالخبر على طبع ازرق وهو علامة الحداد عند امبراطورتهم لان البياض لا يتجلى على الورق الاصفر المستعمل في العادة وعند زواج الامبراطور وعيد ولادته او ولادة الامبراطورة ولادته تصدر الصحف على ورق احمر وهو لون العيد والسعادة وتطبع بالسواد . ويستعمل اللون الاحمر ايضاً في اليوم الاول من السنة وهو يصادف بعد شهر من رأس السنة في اوربا .

والجرائد المصورة ناجحة في المدن العظمى وهذه الصحف مؤلفة من نحو اثني عشرة ورقة مضاعفة ولها غلاف احمر او اخضر وثمن النسخة عشرون سنتيما اما الصور فتكون خطوطا في موضوع جديد

ليس في الصين قوانين مقيدة لحرية الكلام والكتابة كما انه ليس فيها قوانين تضمن لها حقوقها بحيث ان الصحافيين الصينيين هم تحت رحمة رجال الشرطة والحكام كل حين . ولما لم تكن الصحف الصينية لهذا العهد لسان حال حزب سياسي فليس لها قوة ولا خطر منها على الحكومة ولذلك يصح ان يقال ان ليس في الصين صحف غير رسمية ولا صحف معارضة وقد حاولت مؤخرًا جريدة انشئت في وسط بلاد الصين بشركة صينية يابانية ان تنزع عن تلك الطريقة وتخرج عن ربقتها فالغاها الوالي للحال

ولا بأس ان نختم هذا الفصل بالكلام على الصين الحديثة بأن الحكومة الصينية

آخذة بتنشيط تعليم النساء وكان حتى الآن مهملاً بالمرة اذ ان المرأة كانت أبداً في الشرق ولا سيما في الشرق الاقصى بعيدة عن الاهتمام بشؤون بلادها اما الآن فقد أسست الاميرات المالكة المدارس ونطوعت المقائل اليابانيات للتدريس في كل من بكين وسوتشو وهذه المدينة من بلاد الصين بمثابة باريز من فرنسا . وانشئت عدة مدارس كثيرة لبنات الاسرات الكبيرة وقد حضر في العهد الاخير اربع عشرة اميرة مغولية الى بكين ليلقين فيها التعليم الاوربي . واللغة الانكليزية تدرس في جميع هذه المدارس

وانت ترى ان للصين الجديدة مستقبلاً زاهراً يبعث الغرب على الطمأنينة الآن وهو خائف من الخطر الاصفر وان الصين تسير الى المستقبل في نفس الخطة التي اختطها الغربيون نعم ان هذا الامر يحتاج الى زمن طويل قبل ان تأتي الشجرة المغروسة بثمار يعتد بها حقيقة ولكن الصيني عرف بصبره لذلك تراه يؤمل نيل النتيجة في هذا القرن وهو الذي عرف ان ينتظر الغد ويرقبه رقبة الفلاسفة مدة طويلة لا تقل عن بضعة الوف من السنين اهـ .

صحف منسية

كتاب الاشربة

لابن قتيبة

استخرجه احد علماء المشرقيات من الفرنسيس

توطئة

ابن قتيبة اشهر من ان يذكر هنا بكلمات قليلة تكون ترجمة له وقائمة بتصانيفه ولذلك لم أر حاجة الى اعادة ما ترجم به في وفيات الاعيان كما هو مذهب كل من طبع له كتاباً في الشرق فاكتفي بما اتى به ابن خلكان عن البحث اللائق بشأن صاحب عيون الاخبار وكتاب المعارف .

ثم اني رأيت ان صغر حجم كتاب الاشربة لا يقبل الاطالة في الخطبة — وان كانت الاطالة في الخطب مما عوتب به الامام ابن قتيبة في الوفيات — فارجأت الى وقت آخر انشاء مقالة تبحث بحقوق هذا العلامة ان شاء الله فأحصر الكلام الآن في الكتاب الذي بدأت اليوم بنشره ووصف النسخة التي نقلته عنها وبالله التوفيق

اما الكتاب فمعروف وقد ذكره صاحب كشف الظنون (تحت عدد ٩٨٤٦ الجزء ٥ ص ٤٣) واستشهد ببعض فقراته غير واحد من الادباء لا سيما ابن عبدربه فان هذا

الشهاب نقل الى العقد الفريد معظم كتاب الاشربة بعد ان خلط بين اجزائه ولو كان طابع العقد بما يجب له من العناية والدقة لكنا ربما امسكنا عن نشر كتاب الاشربة مع ما اسقطه ابن عبدربه من الفوائد الجزيلة والمحاسن الجليلة التي جرت عادة ابن قتيبة ان يأتي بها على أسلة قلمه . واذا قرأت ما كتبه صاحبنا في الخمر والنبيذ وغيرهما مما قد حرم او أحل شربه فلا بأس بان تقرأ ما جاء به ابن عبدربه في هذه المسألة لتصلح الاغلاط العديدة الواقعة في نسخ العقد المطبوعة وتطلع على ما عاتب به الامام ابن قتيبة من اطالة الكلام وعلة النسيان المؤدية الى التناقض بين قوليه فانه سف لان الله عز وجل لم يمن على ابن قتيبة بعمر طويل ليحيا الى عصر ابن عبدربه فيطلع على ما كتبه هذا ويهديه التوفيق لشرح قوليه في الاشربة وما فيهما من التناقض كما فسر ابن قتيبة الفاق جميع الاحاديث التي ادعى الناس تناقضها في كتابه المؤلف في تأويل مختلف الحديث

اما النسخة التي نقل عنها النص فعبارة عن احد المؤلفات الموجودة في مجموع من مجاميع مصطفى باشا المحفوظة في دار الكتب الخديوية وقد نقلت من المجموع الذي عدده ١٦٦ ثلاثة كتب للاصمعي وهي كتاب الشاء وكتاب الدارات وكتاب النبات والشجر نشرها كلها الدكتور اوغست هفنر وطبع منها الآباء اليسوعيون ببيروت في سنة ١٨٩٨ كتاب الدارات وكتاب النبات والشجر . وتصفحت فهارس المخطوطات المحفوظة في دور الكتب في الشرق والغرب فلم اظفر بغير نسخة من كتاب الاشربة . فلله در هذا الناسخ الذي وقى من ايدي الضياع هذه الآثار الاصمعية والقتيبية وان لم يكن عمله باللغة والمعاني يوازي مهارته بفن الخط فانه يحذف الكلمات والفقر ولا يشعر وهذا شأن متأخري النساخ كلما رأى الراءي ما ينسخون يحكم عليهم بانهم ينقلون الكلام بدون فهم ولا علم . واسم الناسخ عبدالحليم بن احمد اللوحي نسخ مجموعه النفيس في جزئين قدم الثاني وأخر الاول في التجليد فاوله قد انتهى من تحريره يوم الجمعة غرة محرم سنة ١١٠٥ وثانيه في اواخر ذلك الشهر وكتاب الاشربة موجود في الجزء الثاني المقدم من الصفحة ٥٥ الى الصفحة ٨٠ وطول الصفحة ٢٧ سنتمتراً وعرضها ١٦ وعدد السطور في الصفحة ٢٩ سطراً والخط دقيق واضح وما لم اعثر على نسخة اخرى للكتاب عممت الى النص المنقول في العقد الفريد لضبط عبارة هذه الرسالة بعد المقابلة

اما الرواية فانها جاءت مرتين فاثبتنا التي بعد البسملة كما ترى وازلنا التي بعد ترجمة الكتاب وهي : رواية الحسين بن مظفر بن احمد بن كنداج عن ابي محمد عبدالله بن جعفر ابن درستويه النحوي عن ابن طاهر محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الربعي . اذ المشهور ان ابن درستويه كان من تلاميذ ابن قتيبة وروى عنه

كتاب الاشربة

وذكر اختلاف الناس فيها

تأليف أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة

بسم الله الرحمن الرحيم

اخبرنا الشيخ ابوطاهر محمد بن علي بن محمد بن عبدالله البيّع فيما اذن لنا ان نرويه عنه قال اخبرنا ابوعبدالله الحسين بن المظفر كنداج (وفي الاصل كداج) البزاز قراءة عليه قال اخبرنا ابو محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه النحوي قراءة عليه قال قال ابو محمد عبدالله ابن مسلم ابن قتيبة :

الحمد لله الذي هدانا لدينه المرتضى . واكرمنا بنبيه المصطفى . وجعلنا خير امة اخرجت للناس ايمانًا بالغيب وتصديقًا بالوعد وشفقًا من الوعيد . واخلاصًا للتوحيد . واعطانا بالصغير الكبير . وباليسير الكثير . وبالحقير الخطير . وبطاعته في الايام المعدودة الخلود في النعيم المقيم ورضي منا بعفو الطاعة وفسح لنا في التوبة وجعل من وراء الصغير المغفرة ومن وراء الكبير الشفاعة فلم يهلك عليه الا من نفر نفار الظليم وشرد شراد البعير واوسع لنا من طيب الرزق وحرم علينا الخبائث ولم يجعل في الدين من حرج ولا حظر بالاستعباد الا ماجعل منه الخلف الاطيب والبذل الاوفر رحمة منه وبرًا ولطفًا وعطفًا . فحرم علينا بالكتاب الميتة والدم ولحم الخنزير وبالسنة سباع الوحش والطير وعوضنا من ذلك بهيمة الانعام الثانية الازواج وسائر الوحش وصنوف الطير وحرم علينا بالكتاب الميسر وبالسنة القمار وعوضنا من ذلك اللهو بالرهان والنضال وحرم علينا الربى (١) واحل البيع وحرم السفاح واحل النكاح وحرم بالسنة الديباج والحرير وعوضنا الخز والوشي والعقم والرقوحرم بالكتاب الخمر وبالسنة المسكر وعوضنا منهما صنوف الشراب من اللبن والعسل وحلال النبيذ .

وليس فيما عازنا من هذه الامور التي وقع فيها الحظر والاطلاق شيء اختلف فيه الناس اختلافهم في الاشربة وكيفية ما يحل منها وما يحرم على قديم الايام مع قرب العهد بالرسول صلى الله عليه وسلم وتوافر الصحابة وكثرة العلماء المأخوذ عنهم المقتدى بهم حتى يحتاج ابن سيرين مع ثاقب علمه وبارع فهمه الى ان يسأل عبيدة السلماني عن النبيذ وحتى يقول له عبيدة وقد لحق خيار الصحابة وعلماؤهم منهم علي وابن مسعود (٢) اختلف علينا في النبيذ . وفي رواية اخرى . اخذت الناس اشربة كثيرة فما لي شراب منذ عشرين

(١) في الاصل الربا (٢) في الاصل اختلف عليا

سنة الاّ من لبن او ماء او عسل . وان شيئاً وقع فيه الاختلاف في ذلك العصر بين اولئك الائمة لحري ان يشكل على من بعدهم وتختلف فيه آراؤهم ويكثر فيه تنازعهم وقد بينت من مذاهب الناس فيه وحجة كل فريق منهم لمذهبه وموضع الاختيار من ذلك بالسبب الذي اوجبه والعلة التي دلت عليه ما حضرني من بالغ العلم ومقدار الطاقة لعل الله يهدي به مسترشداً ويكشف من غمة وينقذ من حيرة ويعصم شارباً ما دخل على الفاسد من التأويل والضعيف من الحجة ويردع طاعنا على خيار السلف بشرب الحرام وأؤمل بحسن النية في ذلك من الله حسن المعونة والتمهد للزلة ولا حول ولا قوة الا بالله

***

قد اجمع الناس جميعاً على تحريم الخمر بكتاب الله الاّ قوماً من مجان اصحاب الكلام وفساقهم لا يعبأ (١) الله بهم فانهم قالوا : ليست الخمر محرمة وانما نهى الله عن شربها تأديباً كما انه امر في الكتاب باشياء ونهى فيه عن اشياء على جهة التأديب وليس منها فرض كقوله في العبيد والاماء : « فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً » . وقوله في النساء «فاهجروهن في المضاجع واضربوهن — ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط» وقالوا لو اراد تحريم الخمر لقال حرمت عليكم الخمر كما قال حرمت عليكم الميتة والدم . وليس لاشغل بهؤلاء وجه ولا لتشقيق الكلام بالحجج عليهم معنى اذ كانوا ممن لا يجعل حجة على اجماع واذ كان ما ذهبوا اليه لا يخفى على عاقل ولا جاهل واجمع الناس على ان ما غلا (٢) وقذف الزبد من عصير العنب من غير أن تمسه النار خمرٌ وانه لا يزال خمراً حتى يصير خلاً واختلفوا في الحال التي يخرج بها من منزلة الخمر الى منزلة الحل فقال بعضهم : هو ان ينتهي في الحموضة حتى لا يبقى فيها مستزاد وقال آخرون : هو ان تغلب عليها الحموضة وتفارقها النشوة . وهذا هو القول لان الخمر ليست محرمة العين كما حرم عين الخنزير وانما حرمت بعرض دخلها فاذا زايلها ذلك العرض عادت حلالاً كما كانت قبل الغليان حلالاً . وما اكثر من يذهب من اهل النظر الى ان الخمر اذا انقلبت عن عصير والحل اذا انقلب عن خمر ان عين كل واحد غير عين الآخر وهذا القول ما ليس به خفاء على من تدبره وانصف من نفسه وكيف يكون هنا عينان والجسم واحد لم يخرج من الوعاء ولم يبدل وانما انتقلت اعراضه تارة من حلاوة الى مرارة وتارة من مرارة الى حموضة ولم يذهب العرض الاوّل جملة واحدة ولا أتى العرض الثاني جملة (واحدة) وانما زال من كل واحد شيء بعد شيء كما ينتقل طعم الثمرة وهي غضة من الحموضة الى الحلاوة وهي يانعة والعين قائمة

(١) في الاصل يعبؤ (٢) في الاصل غلا

وكما يأجن الماء يطول المكث فيتغير طعمه وريحه واللبن كما يروب اللبن بعد ان كان صريفاً فيتغير ريحه وطعمه والعنب قائمة ومثل الخمر مما حل بعرض وحرم بعرض المسك كان دماً عبيطاً حراماً ثم جف وحدثت رائحته فيه فصار طيباً حلالاً . واما النبيذ فاختلفوا في معناه فقال قوم : هو ماء الزبيب وماء التمر من قبل ان يغليا فاذا اشتد ذلك وصلب فهو خمر . وقالوا : انما كان الاولون من الصحابة والتابعين يشربون ذلك يتخذونه في صدر نهارهم و يشربونه في آخره ويتخذونه من اول الليل و يشربونه على غدائهم وعشائهم . وقالوا : سمي نبيذاً لانهم كانوا يأخذون القبضة من التمر او الزبيب فينبذونها في السقاء اي يلقونها فيه . وقال آخرون : النبيذ ما اتخذ من الزبيب والتمر وغيرهما من المستخرج بالماء او ترك حتى يغلي وحتى يسكن . ولا يسمى نبيذاً حتى ينتقل عن حاله الاولى كما لا يسمى العصير خمراً حتى ينتقل عن حلاوته ولا يسمى الخمر خلاً حتى تنتقل عن مرارتها ونشوتها وانما سمي نبيذاً لانه كان يتخذ و ينبذ اي يترك و يعرض عنه حتى يبلغ . وهذا هو القول لان النبيذ لو كان ماء الزبيب لما وقع فيه الاختلاف ولا جمع الناس جميعاً على انه حلال من قبل ان يغلى فليم اختلف المختلفون وعمّ بما أل السائلون ؟ قال الشاعر (طويل)

نبيذ اذا مرّ الذباب بدنه تعطر لو خرّ الذباب وقيذا

وقال ابن شبرمة (خفيف)

ونبيذ الزبيب ما اشتدّ منه فهو للخمر (١) والطلاء نسيب

وقال آخر (متقارب)

تركت النبيذ وشرابه وصرت حديثاً لمن عابه (٢)
شراباً يضل سبيل الرشاد ويفتح للشر ابوابه

فسماه نبيذاً وهو يفعل هذا الفعل ولا يجوز ان يكون اراد ماء الزبيب ولا ماء التمر قبل ان يغليا وروى الواقدي عن اخيه سملة بن عمر عن عمر بن شيبة بن ابي كبير الاشجعي عن ابيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يحذر (٣) الوجه من النبيذ وتتفاتر (٤) منه الحسنات» وماء الزبيب لا يحذر منه الوجه ولا تتفاتر (٥) منه الحسنات وروى شريك عن ابي اسحق عن عمرو بن حريث قال : سقاني ابن مسعود نبيذاً شديداً من جر اخضر وحدثني سباية عن عمرو بن حميد عن كبير بن سليم قال : حدثني اصحاب انس عنه انه كان

(١) في الاصل الخمر
(٢) في عقد الفريد . تركت النبيذ واصحابه وصرت حديثاً لمن عابه
(٣) في الاصل خدر (٤) في الاصل لتتاتر بدون واو (٥) في الاصل تتاتر

يشرب النبيذ العلب الذي يكون في الحواني وما جاء في مثل هذا مما يدل على ان النبيذ ما غلي «١» واسكر كثيره «٢» وفرق قوم بين نبيذ الزبيب ونبيذ التمر ولا اعلم بينهما فرقاً فيكره واحد ويستحب آخر لانهما جميعاً مسكران . انشد ابن الاعرابي (هزج)

ألا أيها المهديـ ... ـإلينا الآس من شهر
دع الآس ولا تغفل ... اذا جئت عن التمر
فان الآس لا يسكـ ... ـرُ واللذة في السكر

جميع المحرمين لجميع ما أسكر

واما المسكر فان فريقاً يذهبون الى ان كل شيء اسكر كثيره كائناً ما كان ولو بلغ فرقاً فقليله كائناً ما كان ولو كان مثقال حبة من خردل حرام . فلم يفرقوا بين ابن ثلاث ليال من نبيذ التمر اذا غلي وبين ابن ثلاثة احوال من عتيق السكر وعتيق الخمر ولا فرقوا في ذلك بين منفرد وخليطين ولا بين شديد ومهل ولا بين ما استخرج بالماء وما استخرج بالنار وقضوا عليه كله بانه حرامٌ وبانه خمرٌ وذهبوا من الاثر الى حديث حدثنيه محمد بن خالد بن خداش عن ابيه عن حماد بن زيد عن ايوب عن نافع عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كل مسكر خمر وكل مسكر حرام . وحديث حدثنيه اسحق بن راهويه عن المعتمر بن سليمان عن مهدي بن ميمون عن ابي عثمان الانصاري عن القاسم عن عائشة رحمة الله عليها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : كل مسكر حرام وما اسكر الفرق فالحسوة منه حرام . وحديث حدثنيه محمد بن عبيد عن ابن عيينة عن الزهري عن ابي سلمة عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كل شراب اسكر فهو حرام . مع اشباه لهذا من الحديث يطول الكتاب باستقصائها وفي ما ذكرنا من هذه الاحاديث غنى عن ذكر جميعها لانها اغلظها في التحريم واشدها افصاحاً به وابعدها من حيلة المتأول .

وقالوا : والشاهد على ذلك من القرآن ان الخمر انما حرمت لاسكارها وجرائرها «٣» على شاربها لانها رجس . قال الله تعالى وجلّ : « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلوة فهل انتم منتهون » . وقد كان كثير من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حرموا الخمر على انفسهم في الجاهلية لعلمهم بسوء مصرعها وكثرة جناياتها . قالت عائشة رحمة الله عليها : ما شرب ابو بكر رحمة الله

«١» في الاصل غلا «٢» في الاصل كثير «٣» وهذه العبارة احسن مما اتى في العقد الفريد وهو جناياتها لما افيده من معنى الجر والاتجرار فان الجارة الخمر والخمر الشارب

عليه خمرًا في جاهلية ولا اسلام . وقال عثمان رحمة الله عليه : ما تغنيت ولا تغنيت ولا شربت خمرًا في جاهلية ولا اسلام ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت بهارسول الله صلى الله عليه وسلم «١» وكان عبد الرحمن بن عوف ترك شربها وقال فيها بيتًا (وافر)

رأيت الخمر شاربها معنى برجع القول او فصل الخطاب

حدثنا محمد بن عبيد قال حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعد قال قال عثمان : اياكم والخمر فانها مفتاح كل شرّ . أُتي برجل فقيل له : اما ان تحرّق هذا الكتاب واما ان تقتل هذا الصبي واما ان تسجد لهذا الوثن واما ان تشرب هذه الكأس واما ان تقع على هذه المرأة . فلم يرَ شيئًا اهون عليه من شرب الكأس فشرب فوقع على المرأة وقتل الصبي وحرّق الكتاب وسجد للصليب . وقيل للعباس بن مرداس في جاهليته : لم لا تشرب الخمر فانها تزيد في جرأتك . فقال : ما انا بآخذ جهلي بيدي فادخله في جوفي واصبح سيد قومي وامسي سفيههم . وقيل له بعد ما أسنّ واسلم : قد كبرت سنك ودق عظمك فلو اخذت من هذا النبيذ شيئًا يقويك . فقال : اصبح سيد قومي وامسي سفيههم وآليت ان لا يدخل رأسي ما يحول بيني وبين عقلي . وكان قيس بن عاصم يأتيه في جاهليته تاجر خمر فيبتاع منه ولا يزال الخمار في جواره حتى ينفد «٢» ما عنده فشرب قيس ذات يوم فسكر سكرًا فيجًا فجذب ابنته وتناول ثوبها ورأى القمر فتكلم بشيء ثم انهب ماله ومال الخمار وانشأ يقول وهو يضربه . (بسيط)

من تاجر فاجر جاء الاله به كأنّ لحيته اذناب احمال
جاء الخبيث بيسانية «٣» تركت صبحي واهلي بلا عقل ولا مال

فلما صحا خبرته ابنته بما صنع وما قال فآلى لا يذوق الخمر ابدًا وقال . (وافر)

رأيت الخمر صالحة وفيها خصال تفسد الرجل الجليا
فلا والله اشربها صحيحًا ولا اشفي بها ابدًا سقيما
ولا اعطي بها ثمنًا حياتي ولا ادعو لها ابدًا نديما

وكان عثمان بن مظعون حرم الخمر في الجاهلية وقال : لا اشرب شرابًا يذهب بعقلي و يضحك بي من هو ادنى مني وازوج كريمتي من لا اريد . فبينا هو بالعوالي اذ اتاه آت فقال : اشعرت ان الخمر حرمت ؟ وتلا عليه الآية في المائدة فقال تبًا لها ! لقد كان بصري

---

(١) في الاصل : ما تغنيت ولا تغنيت . وفي عقد الفريد : ما تغنيت ولا تقنيت ولا مسست فرجي بيدي بعد ان خطبت بها المفصل (٢) في الاصل ينفذ (٣) في الاصل نيسانية وفي العقد الفريد بيسانية ولا اظنها الا ميسانية لنسبتها الى ميسان

فيها نافذاً . قيل لاعرابي اتشرب النبيذ ؟ فقال : لا اشرب ما يشرب عقلي . ودعا يزيد ابن عبدالملك نصيباً او كثيراً الى ندامته فقال : ياامير المؤمنين اني لم أصر الى هذه المنزلة بمال ولا دين وانما وصلت بلساني وعقلي فان رأيت ان لا تحول بيني وبينهما فافعل وقال بعض الشعراء (طويل)

ومن(١) لقرع الكأس الذميمة سنه فلا بدّ يوماً ان يريب ويجهلا
فلم أرَ مشروباً اخس غنيمة واوضع للاشراف منها واخملا
واجدر ان تلقى حليماً بغيها ويشربها حتى يخر مجدّلا

وقال آخر (طويل)

ولست بلاح لي نديماً بزلة ولا هفوة كانت ونحن على الخمر
عزلت بجنبي(٢) قول خذ في وصاحبي ونحن على صهباء طيبة النشر
وايقنت ان السكر طار بلبه فاغرق في شتمي وقال وما يدري

ودخل أمية بن خالد بن اسيد على عبد الملك بن مروان وبوجهه آثار فقال : ماهذا ؟ فقال : قمت الليل فاصاب الباب وجهي فقال عبد الملك : (طويل)

رأتني صريع الخمر يوماً فسؤتها(٣) وللشارب بها المدمنيها مصارع

فقال امية : لا أخذني الله بسوء ظنك يا امير المؤمنين . فقال : لا بل لا آخذني الله بسوء مصرعك (٤) . ودخل حارثة بن بدر الغداني على زياد وكان حارثة صاحب شراب وبوجهه اثر . فقال له زياد : ما هذا الاثر بوجهك ؟ فقال : ركبت فرساً لي اشقر فحملني حتى صدم بي الحائط . فقال له زياد : اما انك لو ركبت الاشهب لم يصبك مكروه . وقال ابن هرمة الشاعر في شربه ونسبه وجودة شعره يشرب الخمر بالمدينة ويسكر فلا يزال الشرط وقد اخذوه ورفعوه الى الوالي في المدينة فحده فوفد على ابي جعفر المنصور وقد قال فيه المدحة التي امتدحه بها وقافيتها لام فاستحسنها وقال له : سل حاجتك . قال : يا امير المؤمنين تكتب الى عامل المدينة ان لا يحدني ان وجدني سكرانا . فقال ابوجعفر : هذا حد من حدود الله وما كنت لأعطله فهل من حاجة غيره ؟ قال لا والله ياامير المؤمنين فاحتل لي بعجلة فكتب المنصور الى عامله . من اتاك بابن هرمة وهو سكران فاجلده مائة واجلد ابن هرمة ثمانين . فرضي ومضى بكتابه فكان العون اذا مرّ به صريعاً قال : من يشتري ثمانين بمائة ؟ ثم اعرض عنه . وكان مالك بن قيس من ثقيف يشرب مع ابن

(١) في الاصل من نقرع بدون واو (٢) في الاصل عركت بجنبي وفي الحاشية :لعله عزلت بجنبي وقبلها تصحيحه (٣) عقد الفريد بسوقها (٤) عقد الفريد لا بل آخذك اقلع الخ

الكاهلية يوم عرفة وهم محرمون فغلبه السكر فنام حتى فات الحج وادركه ابن الكاهلية فقال : (وافر)

ايس الله يامال ابن قيس وان غبنا عليك رقيب عين
أقم صدر المطية وانخ اني اراني وابن نجمة هالكين

فاية جزيرة اعظم من هذه واية غبنة اشد من غبنتها واية (١) صفقة اخسر من صفقتها وماذا يلقى صاحبها فاذا عاودها هان عليه القبيح قال القطامي (طويل)

افؤ اذا اصبحت من كل عاذل وأمسي وقد هانت علي العواذل

وقال ابن هانيء (رمل)

اسقني حتى تراني حسناً عندي القبيح

وسئل قوم اعرابية مسكرًا فلما انكرت نفسها قالت لهم : ايشرب هذا نساؤكم ؟ فالوانعم : قالت: لئن كنتم صدقتم لا يدري احدكم من ابوه . وكانت العرب في الجاهلية وصدر الاسلام يشتدون على النساء في شربة حتى ما يحفظ ان امرأة شربت ولا ان امرأة سكرت . وحدثني الرياشي عن الاصمعي قال : كان عقيل بن علفمة المري غيورا فكان يسافر بنت له يقال لها الجرباء فسافر بها مرة فقال (طويل)

قضت وطرًا من دير سعد وربما على غرض ناطحنه بالجماجم (٢)

ثم قال لابن له يقال له عمملس : أجز فقال

فاصبحن بالموماة يحملن فتية نشاوى من الادلاج ميل العمائم

ثم قال لابنته : اجيزي باجرباء فقالت

كأن الكرى سقاهم صرخدية عقارًا تمشى في المطا والقوائم

فقال : والله ما وصفتها هذه الصفة الا وقد شربتها ثم احال عليها يضربها (بالسوط) فلما رأى ذلك بنوه وثبوا عليه فحلوا فخذه بسهم فقال (رجز)

ان بني زملوني بالدم من يلقى ابطال الرجال يكلم
شنشنة اعرفها من اخزم

واخزم فحل والشنشنة الشبه (٣) وقد فضح الله بالشراب اقوامًا من الاشراف فحدوا

---

(١) في الاصل واي (٢) جاء هذا البيت في الاصل هكذا :

قضت وطرًا من دار سعدي على عرض ياطحنه بالجماجم

(٣) ومرت حكاية عقيل والجرباء مرتين في العقد الفريد احداهما في باب بعد الهمة وشرف النفس من كتاب مخاطبة الملوك (الجزء الاول) الثانية في باب قولهم في المتاكم من

ودوّنت في الكتب اخبارهم ولحقت بتلك السبة اعقابهم . منهم الوليد بن عقبة (بن

كتاب النساء وصفاتهن (الجزء الثالث) وناهيك بقلة اعتناء مؤلفي الكتب بالشرق ان جميع من طبعوا العقد الفريد لم يقابلوا بين النصوص المكررة فيه فتجد مثلاً بيت عقيل هذا في الجزء الاول هكذا

قضت وطراً من دير سعد وربما علا عرض منها بدير الحماحم

وفي الجزء الثالث هكذا

قضيت وطراً من دير سعد وربما علا غرض ناطحته بالجماجم

فلله درُّ علماء المشرقيات فانهم لم تفتهم كلمة الا واثبتوها على اصح الرواية واتم القياس وان كان من شأنها ان ينبه عليها القاري، دلوه عليها بالفهارس والمقابلات وحبذا لو اقتفى آثارهم علماء هذه الديار . اما الحكاية نفسها فهي من حكايات الاصمعي ولا فرق بين رواية العقد الفريد ورواية كتاب الاشربة غير ان صاحب العقد اتمها بما يفيد ان عقيل بن علقمة المري كان رجلاً غيوراً فخوراً . وكان يصهر اليه خلفاء بني أمية فخطب اليه عبد الملك ابن مروان ابنته لبعض ولده فقال : جنبني هجناء ولدك وكان اذا خرج يتار خرج بابنته الجرباء معه فخرج مرة فنزلوا ديراً من ديرة الشام يقال له دير سعد فلما ارتحلوا قال عقيل قضت وطراً . الخ . قال: فاستغاثت باخيها عملس فحال بينه وبينها فاراد ان يضربه فرماه بسهم فحل فخذه فبرك فمضوا وتركوه حتى اذا بلغوا ادنى ماء للاعراب قالوا لهم انا اسقطنا جزوراً فادركوه وخذوا معكم الماء ففعلوا فاذا عقيل بارك وهو يقول

ان بني زملوني بالدم من يلق ابطال الرجال يكلم

ومن يكن درءٌ به يقوم شنشنة اعرفها من اخزم

والشنشنة الطبيعة واخزم فحل معروف وهذا مثل للعرب . فهذه رواية الاصمعي كما ترى وللمدائني رواية اخرى نقلتها هنا اتماماً للفائدة عن كتاب بدائع البدائه المطبوع على حاشية كتاب شرح شواهد التلخيص للعباسي (الجزء الاول ص : ٣٠٣ مصر المطبعة البهية سنة ١٣١٦) قال علي بن ظافر الازدي صاحب كتاب بدائع البدائه : روى المدائني ان عقيل بن علقمة المري خرج هو وابناه جثامة وعلقمة وابنته الجرباء فانتجعوا بني مروان بالشام ثم قفلوا حتى اذا كانوا ببعض الطريق قال عقيل :

قضت وطراً من دير سعد وربما على عرض ناطحته بالجماجم

اذا هبطت ارضاً يموت غرابها بها عطشاً غطيته باخزائم

ثم قال أجز يا علقمة فقال :

ابي معيط اخو عثمان بن عفان لامه) شهد عليه اهل الكوفة بشرب الخمر وانهم صلى بهم

اذا علم غادرنه بتنوفة تدارعن بالابدي لآخر طامس

ثم قال اجز ياجثامة فقال :

واصبحن بالموماة يحملن فتية نشاوى من الادلاج ميل العمائم

ثم قال اجز ياجرباء فقالت : وانا آمن ؟ قال نعم فقالت :

كأن الكرى سقاهم صرخدية عقارًا تمشت في المطا والقوائم

فقال عقيل شربتها ورب الكعبة لولا الامان لضربت بالسيف ما تحت قرطبيك اما وجدت من الكلام غير هذا ؟ فقال جثامة : وهل اساءت ؟ انما اجازت وليس غيري وغيرك فرماه عقيل بسهم فاصاب ساقه ثم شدّ عليها وقال : لولا يعيرني بنو مرة بعد اليوم ماذقت الحياة ثم نحر عند جثامة جزورًا وتركه وقصد قومه وقال : لئن اخبرت اهلك بشأن جثامة او قلت انه اصابه غير الطاعون اتيت عليك فلما قدموا على اهل اثير وهم بنو القين ندم عقيل على ما فعل بجثامة فقال لهم : هل لكم في جزور انكسرت ؟ قالوا نعم قال : الزموا اثر هذه الرواحل حتى تجدوا الجزور . فخرج القوم حتى انتهوا الى جثامة فوجدوه وقد انزفه الدم فحملوه واقتسموا الجزور وانزلوه عليهم وعالجوه حتى برىء والحقوه بقومه فلما احتملوه وقرب من الحي تغنى جثامة يقول :

ايعذر لاهينا وتحبين سفي الصبا وما هن والفتيان الا شقائق

فقال لهُ القوم انما افلت من الجراحة التي جرحك ابوك آنفًا وقد عاودت ما يكرهه فامسك عن هذا ونحوه اذا لقيته لئلا يلحقك منه شرٌّ فقال : انها خطرة عرضت والراكب اذا سار يترنم . وقد ذكر ابن قتيبة في كتاب الاشربة هذه الحكاية على غير هذه الصفة وذكر لعقيل البيت الاول من بيتيه وجعل بدل علقمة اخاه عمملس وانشد له البيت الاول ايضًا من بيتيه ثم ذكر انه انحنى على ابنته الجرباء يضربها بالسوط فلما رأى ذلك بنوه وثبوا عليه فشلوا لحذه بسهم فقال :

ان بنيَّ زملوني بالدم من يلق آساد الرجال يكلم

شنشنة اعرفها من اخزم

قال علي بن ظافر الازدي : وذكر ابو الفرج هذا الرجز في حكاية اخرى تتصل بزيد ابن العباس التغلبي والربيع بن عبير قال : عدا عقيل بن علقمة على افراس له عند بيوته فاطلقها ثم رجع فوجد بنيه واسهم مجتمعين فشدَّ على علقمة بسيف فحاد عنه وتغنى بقوله :

فني يا ابنة المري نسألك الذي تريدين فيما كنت منيتنا قبلُ

الغداة(١) (ثلاث ركعات) وهو سكران فقال: (ان شئتم) زدتكم. شهره الله بذلك(٢) وبمنادمة ابي زبيد الشاعر وكان نصرانياً(٣) فحده علي بن ابي طالب بين يدي عثمان وفيه يقول الحطيئة: «كامل»

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ... أن الوليد احق بالعذر
نادى وقد تمت صلوتهم ... أأزيدكم ثملاً وما يدري (٤)
ليزيدهم خيراً ولو قبلوا ... لجمت (٥) بين الشفع والوتر
كبحوا (٦) عنانك اذ جريت ولو ... تركوا عنانك لم تزل تجري (٧)

تخبرك ان لم تخبري الوعد اننا ... ذوو خلة لم يبق بينهما وصل
وان شئت كان الصرم بيني وبينكم ... وان شئت لم تبقى المكارم والبذل

فقال عقيل: يا ابن اللخناء متى منتك نفسك بهذا؟ وشد عليه بالسيف وكان عمملس اخاه لامه فحال بينه وبينه فشد على عمملس بالسيف فرماه عاقمة بسهم فاصابت ركبته فسقط عقيل وجعل يتمك في دمه ويرتجز بالرجز المقدم وبعده قوله:

من يلق ابطال الرجال يكلم ... ومن يكن ذا أود يقوم

قال المدائني واخزم نحل لرجل كان منجبا فضرب ابل رجل آخر ولا يعلم صاحبه فرأى بعد ذلك من نسله جملاً فقال: شنشنة اعرفها من اخزم. فأرسلت مثلا وذكر الحريري في تفسير بعض مقاماته ان اخزم جد حاتم الطائي وان جده الادنى سعداً ضربه له مثلاً لما رأى من تخلقه باخلاقه وآثاره والشنشنة الشبه والصحيح ما ذكره ابو الفرج وهذه الفعلة من عاقمة كانت سبب تفريق عقيل اولاده وطردهم عنه وكانوا يقصدون اذاه بانشاد الغزل بحضرة اخواتهم لانه كان مفرط الغيرة مبالغاً في الظن شديد الرقاعة وهم من شياطين العرب.

(١) في العقد الفريد: الصبح

(٢) في الاصل وهو سكران وقال ازيدكم بشهر الله بذلك

(٣) في الاصل هنا فضاء واسع غطيناه بما وجدناه في العقد الفريد ولا نحسب الناسخ الا اغلطه تكرر كلمة نحده مرتين فانتقل من الاولى الى ثانية غافلاً عما بينهما من خبر الوليد لجعل عمرو بن العاص يجده بمصر وهو بالكوفة ولا ندري اكانت ابيات الحطيئة التي انشدها صاحب العقد انشدها ابن قتيبة ام لا ولذا نقلنا هنا نصاً لم يكن لنا بدّ من نقله بتمامه

(٤) كذا في ديوانه وهو يخالف ما جاء في العقد وهو: ليزيدهم خيراً ولا يدري

(٥) في ديوانه لقرنت

(٦) في ديوانه: خلعوا

(٧) ومما جاء في شرح ديوان الحطيئة لابي الحسن السكري قال: قال الهيثم بن عدي

ومنهم عبيدالله بن عمر بن الخطاب شرب بمصر فحده عثمان عمرو بن العاص : مرة فلما قدم على عمر رضي الله عنه حده حداً آخر (علانية) . ومنهم العباس بن عبدالله بن العباس كان ممن شهر بالشراب ومنادمة الاخطل الشاعر وكان نصرانياً وفيه يقول : (كامل)

ولقد غدوت على التجار بمسجح ... مرت عواذله هبير الاكلب
لد تقبله (١) النعيم كأنما ... مسحت ترائبه بماء مذهب

صلى الوليد بن عقبة صلوة الصبح بالناس وهو سكران فوثب جندب بن زهير وابو زينب الازديان فاخذا خاتمه من يده فلم يعلم بهما ويقال انه التفت اليهم فقال : أأزيدكم ثم ان الازديين رحلا الى عثمان ومعهما الخاتم فاعلماه ما كان من ذلك فقال اوَ كلما عتب رجل على واليه جاء يقرفه بالحدود لا لكن بكما ! فاتيا عليّ بن ابي طالب رضي الله عنه فقال : عليكما بام المؤمنين فانه اشبع لامركما فاتيا ام المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها فذكرا ذلك لها فقالت : كونا قريبا . فلما خرج عثمان رضي الله عنه الى صلوة العصر نادت عائشة : الا ان عثمان عطل الحدود وتهدد الشهود فدخل عثمان وهو مغضب فقال قائل ما لعائشة ولهذا ؟ انما هي زوج النبي صلى الله عليه وسلم امرها الله ان تقر في بيتها فقال قائل : من احق بالنظر في امور المسلمين من امهم ؟ فلم يزالوا حتى كتب عثمان الى الوليد ان أقدم واحضر معك من يقوم بعذرك ان كان لك عذر . فاقبل في سبعين من اشراف الكوفة فيهم عدي بن حاتم وكان الوليد خلائقه خلائق عربية فكان في مسيره يأمر رجلاً فيرجز باصحابه ساعة ثم يركب وينزل آخر ففعل مثل ذلك حتى ادركت الوليد النوبة فرجز باصحابه .

لا تحسبينا قد نسينا الايجاف ... والشدات من معتق صاف

فقال عدي بن حاتم يا ابا وهب فبم تذهب اذاً ؟ فقدموا على عثمان فقال : ما تقولون في اميركم ؟ قالوا خيراً وسكت عدي بن حاتم فقال ابو زينب وجندب بن زهير : سلهم هل كانوا شهدوه يوم اخذنا خاتمه . فقالوا لا . فقالا : ليس هؤلاء ممن جئنا في شيء . فقال عثمان : اما والله لقد كنت اخاف عليك هذا ونحوه قال وكان علي رضي الله عنه يقيم الحدود فامره عثمان ان يضربه فضربه علي بسوط له طرفان اربعين جلدة فقال : اعتزلهم ايا وهب فلا خير لك فيهم . فقال الوليد : والله لا اساكن عثمان ببلدة ابداً الا اليني وبينه بطن واد فقال كثير بن الصلت الكندي يا ابا وهب داري بسخطان ودارك بالسوق ويني وبين المدينة بطن وادفهل لك ان ابادلك ؟ فبادله فتحول كل رجل الى منزل صاحبه ثم استعمل عثمان سعيد بن العاص على الكوفة مكانه فلما قدم الكوفة قال : لا اصعد المنبر حتى يطهر فغسل ثم صعد

(١) في الاصل يقبله

لباس اردية المملوك يروقه من كل مرتقب عيون الريب
يتظرن من خلل الستور اذا بدا نظر الفجان الى القنيق المعصب
فضل الكباس اذا تشئ (١) لم يكن خلفا مواعده كثير الحلب
واذا تمورت (٢) الزجاجة لم يكن عند الشراب بفاحش متقطب

فاخبر انه غدا على تجار الشراب به واخبر انه يروقه عيون النساء ويرقه . وكان عبيد الله بن عبدالله بن عباس من اجمل الناس وكان يقال له المذهب لجماله ومدحه كما كان يمدح بعض النصارى وكانت الشهرة في الشعر على حسب حسنه ورغبة الناس في حفظه . ومنهم قدامة بن مظعون من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حده عمر بشهادة علقمة الحمصي عليه وغيره في الشراب . ومنهم عبدالرحمن بن عمر بن الخطاب المعروف بابي شحمة حده ابوه في الشراب وفي امر آخر ذكرت . وطاعم بن عمر بن الخطاب حده بعض ولاة المدينة في الشراب . وعبيدالله بن عروة بن الزبير حده هشام بن اسماعيل المخزومي في الشراب . وعبد العزيز (بن) مروان حده عمر بن الاشدق في الشراب . ومن يصيح بالشراب بلال بن ابي بردة (الاشعري) قال يحيى بن نوفل الحبري (متقارب)

واما بلال فذاك الفتى تميل الشراب به حيث مالا
يبيت يمص عتيق الشراب كمص الوليد يحاف الفصالا
ويصبح مضطربا ناعسا نحال من السكر فيه احولالا (٣)
ويمشي ضعيفا كمشي النزيف نحال به حين يمشي شكلا

ومنهم عبدالرحمن بن عبدالله الثقفي القاضي بالكوفة فتح بنادمة سعد بن هبار فقال حارثة بن بدر (٤) . (وافر)

تهاره سيف فضايا غير عادلة وليله في هوى سعد بن هبار
ما سمع الناس اصواتا لهم عرضت الا دويا دوي النحل في الغار
فاصبح القوم اطلاقا احرّ بهم حب المطايا (٥) وما كانوا بسفار
يدين اصحابه فيا يدينهم كأسا بكأس وتكرارا بتكرار (٦)

---

(١) في الاصل تمشى (٢) في الاصل تمورت (٣) العقد الخلالا (٤) جاءت الخبار حارثة بن بدر في الجزء ٢١ من الاغاني فراجعها (٥) في الاصل وفي العقد المطي كذا ابتداء لاجل الوزن (٦) في الاصل وفي العقد

يدين اصحابه فيا يدينهم كأسا بكاس وتكرار بتكرار

وقدم صاحب العقد البيت الآخر على البيت قبله

وهذا عبد الملك بن مروان بعد اجتهاده في العبادة فضحه الله تعالى في الشراب فكان يشرب المنذي وقال له سعيد بن المسيب : بلغني يا امير المؤمنين انك تشرب بعدي الطلا . فقال اي والله والدماء . وهذا الوليد نقم عليه الناس شرب المسكر ونكاح امهات اولاد ابيه فقتلوه . وهذا يزيد بن معاوية كان يقال اذا ذكر يزيد الخمور والقرود فقال الشاعر فيه . (كامل)

ابني امية ان آخر ملككم جسد بحوارين ثم مقيم
طرقت منيته وعند وساده كوب وزق راعف مرثوم
ومرنة تبكي على نشواته بالصبح تقعد تارة وتقوم

ومنهم خالد بن عمرو بن الزبير وفيه يقول القائل (طويل)

اذا انت نادمت العتير وذا الندى جبيرًا وعاطيت الزجاجة خالدا
امنت باذن الله ان تقرع العصا وان يوقظوا من رقدة السكر راقدا
وصرت بحمد الله في خير فئية حسان الوجوه لا تخاف العرابدا

والعجب عندي قوله * وان يوقظوا من نومة السكر راقدا * واكثر ما يوقظ السكران للصلوة افتراء حمدهم على تركهم ايقاظه للصلوة اذا سكر؟ وهذا ابو محجن الثقفي شهد يوم القادسية وابلى بلاء حسنًا شهر وكان فيمن شهد ذلك اليوم عمرو بن معديكرب فقدم عليه وهو القائل . (طويل)

اذا مت فادفني الى اصل كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فانني اخاف اذا ما مت ان لا اذوقها

حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن قريب قال : اخبرني الاصمعي عن ابن الاصم عن عبد العزيز بن مسلم العقيلي قال رأيت قبر أبي محجن الثقفي بارمينية الرابعة تحت شجرات من كرم .

(الباقي يتبع)

مطبوعات ومخطوطات

شرح ديوان المتنبي

ما رزق احدٌ من الشعراء حظوة كحظوة المتنبي في شعره وما خدم ديوان بمثل ماخدم ديوانه . ولعل ذلك والله اعلم من اجل تلك الحكم الرائعة التي تخللت شعره . وما يحيل لي ان المتنبي بقي اسمه يردد على الافواه كل يوم ألوفاً من المرات الا بفضل حكمه والا فالمديح والنسيب الذي فيه يوجد مثله في دواوين غيره من الشعراء . اطلعت بالاتفاق على شرح لهذا الديوان لأبي الحسن علي بن احمد الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨ قال صاحب كشف الظنون فيه وهو اجمل ما وجدنا عليه من الشروح واكثرها فائدة ليس في شروحه مثله

قال فيه الشارح بعد البسملة والحمدلة والصلولة : اما بعد فان الشعر انفى كلام . واعلى نظام . وابعد مرقى في درجة البلاغة . واحسنه ذكراً عند الرواية والخطابة . واعلقه بالحفظ مسموعاً . وادله على الفضيلة الغريزية مصنوعاً . وحقاً لو كان الشعر جوهراً لكان عقيانا . او من نبات لكان ريحانا . ولو امسى نجوماً لزاد ضياؤها . او عيوناً لما غار ماؤها فهو الطف من در الطل . في اعين الزهر . اذا تفتحت الرياض غب المطر . وارق من دمع المستهام . ومن الراح رقرق بماء الغمام . وهذا وصف اشعار المحدثين الذين تأخروا عن الجاهلية . وعن نأناة الاسلام الى ايام ظهور الدولة العباسية . فانهم الذين اصبح بهم الشعر عذباً فراتاً بعد ماكان ملحاً اجاجاً . وابدعوا في المعاني غرائب اوضحوا بها لمن بعدهم طرقاً فجاجاً . حتى اصبحت روضة الشعر . مفتحة الانوار يانعة الثمار . منتقة الازهار . متسلسلة الانهار . فثمرات العقول منها تجتنى . وذخائر الكتابة عن غرائبها تقتنى . وكواكب الآداب منها تطلع . ومسالك العلم من جوانبها يسطع واليها تميل الطباع . وعليها تقف الخواطر والاسماع . واليها ينشط الكسلان . وعند سماعها يطرب الثكلان . لما لها من المزايا والتديج . وسطوع روائح المسك الاريج .

وبعد ان اورد حديث ان من الشعر لحكمة وقول عائشة الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح نخذ الحسن ودع القبيح قال : ولقد رويت اشعاراً منها القصيدة اربعون ودون ذلك وان الناس منذ عصر قديم قد اولوا جميع الاشعار صفحة الاعراض مقتصرين منها على شعر ابي الطيب المتنبي نائين عما يروى لسواه . وان فاته وجاوز في الاحسان مداه . وليس ذلك الا البحث اتفق لها فعلاً وبلغ المدى وقد قال

هو الجد حتى تفضل العين اختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

وجاء في آخر الشرح . هذا آخر ما اشتمل عليه ديوانه الذي رتبه بنفسه وهو خمسة آلاف واربعمائة واربع وتسعون قافية وتقرر الفراغ من نسخ هذا التفسير والشرح السادس عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وستين واربعمائة قال الشيخ الامام رحمه الله : انما دعاني الى تصنيف هذا الكتاب مع خمول الادب وانقراض زمانه اجتماع اهل العصر قاطبة على هذا الديوان وشغفهم بحفظه وروايته والوقوف على معانيه وانقطاعهم عن جميع اشعار العرب جاهليها واسلاميها الى هذا الشعر وافتصارهم عليه في تمثلهم ومحاضراتهم وخطبهم ومقاماتهم حتى كأن الاشعار كلها فقدت وليس ذلك الا لتراجع الهمم وخلوّ الزمان ونقاصر الرغبات وقلة العلم بجوهر الكلام ومعرفة جيده من رديه ومطبوعه من متكلفه ومع ولوع الناس بهذا الديوان لا ترى احداً يرجع في معرفته الى محصول او يعي ببيان عن مودعاته وغوامض معانيه ومشكلاته . . . .

وهاك نموذجاً صغيراً من شرحه قال :

ابى خلق الدنيا حبيباً تديمه ثما طلبي منها حبيباً ترده

قوله تديمه من فعل الدنيا وكذلك ترده اي تدفعه ويجوز ان يريد ترده الى الوصل يقول حبيب تديمه الدنيا قد ابت ذلك اي تأبى ان تديم لنا حبيباً على الوصال فكيف اطلب منها حبيباً تمتعه عن وصالنا وكيف اطلب منها ان ترده الى الوصال بعد ان اعرض وهجر .

واسرع مفعول فعلت تغيراً تكلف شيء في طباعك ضده

يقول ان الدنيا لو ساعدتنا بقرب احبتنا مادام ذلك لان الدنيا بنيت على التغير والتنقل فاذا فعلت غير ذلك كانت كمن تكلف شيئاً هو ضد طباعه فيدعه من قريب ويعود الى طبعه كما قال حاتم

ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه يدعه وترجعه اليه الرواجع

ومثله قول الاعشى الذي

ومن يقترف خلقاً سوى خلق نفسه يدعه وتغلبه عليه الطبائع

وادوم اخلاق الفتى ما تشابه واقصر افعال الرجال البدائع

وقول ابراهيم بن المهدي

من تحلى شيمة ليست له فارقته واقامت شيمه

وقال في شرح

واتعب خلق الله من زاد همه وقصر عما تشتهي النفس وجده

هو مثل ضربه لنفسه كأن يقول انا اتعب خلق الله لزيادة همتي وقصوري عما تقتضي من النفس عن مبلغ ما هممت به وهذا مأخوذ مما في الحديث ان بعض العقلاء سئل عن اسوإ الناس حالاً فقال من قويت شهوته وبعدت همته واتسعت معرفته وضاقت مقدرته . وقال الخليل ابن احمد .

رزقت لبّاً ولم ارزق مروته وما المروءة الا كثرة المال
اذا اردت مسامات تقاعدني عما ينوء باسمي رقة الحال

فلا يخلل في المجد مالك كله فيخمل مجد كان بالمال عقده

هذا نهي عن تبذير المال والاسراف في انفاقه يقول لا تذهب مالك كله في طلب المجد لان المجد لا ينعقد الا بالمال فاذا ذهب مالك كله اخمل ذلك المجد الذي كان يعقد بالمال الا ترى الى قول عبدالله بن معاوية

ارى نفسي تتوق الى امور يقصر دون مبلغهن مالي
فلا نفسي تطاوعني بخل ولا مالي يبلغني فعالي

وقد كتب الاصل بالحمرة والشرح بالحبر الاسود على عادة الكتب القديمة ولولا نقص كراس منه لكان جديراً بالطبع وقد روى بعضهم ان هذا الكتاب مطبوع في اوربا والنسخة التي نكلمت عليها كتبت في شهر رمضان سنة ١٠٧٥ وعدد اوراقها ٥٢٥ من الحجم الوسط

الادراك للسان الاتراك

نشر مسيو لوسين بوفان من مشاهير علماء المشرقيات عند الفرنسيس هذه الرسالة النافعة لمؤلفها ابي حيان الاندلسي المولود في غرناطة سنة ٦٥٤ هـ والمتوفى في مصر سنة ٧٤٥ وكان ابو حيان كثير التصنيف ذكر له مترجموه زهاء ستين مصنفاً وهو العلم المفرد في النحو وله خمس رسائل في نحو اللغة التركية وصرفها وقد قال عن هذه الرسالة انها لم يُنسج على منوالها كتبها عقيب مقامه في مصر واختلاطه بالترك الذين كانوا ملوك عصره وهذه الرسالة لنفسه كما قال ناشرها الى كتاب مفردات اللغة التركية مترجمة الى العربية وفيها نحو الفين ومائتي لفظة والقسم الثاني في التلفظ والتصريف والقسم الثالث في النحو فشكر الناشر عنايته اكثر الله في خدمة العلم امثاله

الفنون السبعة

اهدانا مسيو هرمان كيز من علماء المشرقيات من الالمان نسخة من هذه الرسالة وعنى بالفنون السبعة الشعر القريض والموشح والدوبيت والزجل والمواليا والكان وكان والقوما وشرحها كلها بالالمانية مع ايراد بعض القفرات باللغة العربية . والقوما والكان وكان لا يعرفهما سوى اهل العراق . وجدنا لوعاد هذه الآونة الى ما كان كتبه في هذا الموضوع واشبعه مع ترجمة جميع ما يكتبه بالعربية لتم فائدته الجميع

مناقضات العلماء

اطلعنا على رسالة للامير شكيب ارسلان في رثاء فقيد اللغة الشيخ ابرهيم اليازجي قال فيها :

لم يبرح الدهر فناك المضارب عن ايامه البيض او ليلاته السمر

اذا لمحا غافل عن رعي طارقة فالشدائد منه بالغ النذر
كفى بريب المنايا واعظاً وحِجا رشداً لمن كان من دنيا على غرر
تخالف الناس في الاهواء حين حيوا وجمع الموت منهم كل منتثر
وقد يلج ببعض كيد شانئه ولو درى لصفا صفواً بلا كدر
وقد يحاول سعي اعدائه ظلفاً وانه بين ناب الموت والظفر
كم وتر قوس ضغن كف ذي ترة فأذهب الموت عزم الوتر والوتر
والدمع يغسل ما بالقلب من وضر كما يزول غبار الارض بالمطر

الى ان يقولي بعد ان وفاء حقه من الرثاء

اليك حقك لا ظلم ولا سرف لا ينكر الشمس الا فاقد البصر
وان يوا خذك نقاد يبادرة فليس يرجم الا مثمر الشجر
وقد يعاب الذي في البدر من كلف وليس يسلب معنى الحسن في القمر (١)

الاسلام في افريقية الشرقية

« L'Islam dans l'Afrique occidentale. par M. A. Le Chatelier »

مسيو لشاتليه من كبار علماء المشرقيات المتصرفين في فرنسا الى دراسة احوال الشرق ولا سيما اهل الاسلام و بلادهم قضى في ذلك السنين الطويلة وهو اليوم رئيس ادارة مجلة العالم الاسلامي الفرنسوية ولهُ في الابحاث المشار اليها عدة مصنفات ممتعة ومنها هذا الكتاب القسيم الضخم نسخة منه قرأنا فيها ادلة على فضله وتحقيقه فقد تكلم فيه على مسلمي غربي إفريقية كلام من رحل اليهم وخالطهم وعرف عجرهم وبجرهم وشفع كلامه بنصوص تاريخية ووصف احوالهم الاجتماعية والدينية والمعاشية والسياسية في سفر ضخم وقع في زهاء ٣٧٠ صفحة وشفعه بمصوّرات نفيد القاريء اذا اراد ان يتصور تلك البلاد . ومما استنتجهُ ان الاسلام عريق في تلك البلاد يرد عهده الى زمن عمرو بن العاص لما فتح مصر وجاءهُ ستة من البربر ودانوا بالاسلام وراحوا ينشرونه بين اهلهم وعشيرتهم وان الويز دي كاداموستو قال سنة ١٤٥٥ ان الاسلام يزداد انتشاره بين قبائل الزنوج في افريقية الغربية . ومن

(١) هذا البيت والذي قبله يشيران الى ما كان حدث بين المرثي والراثي من المناقشة مراراً وقد توخى الامير في هذه القصيدة جملة اغراض منها ان الانتقاد لا يسلب الفضل ومنها ان الموت يذهب الاحقاد ومنها ان التوجع لفقد كل انسان فرض على كل انسان لان ذهاب الفرد ايذان بذهاب النوع الذي يندمج في طيه كل فرد

رأي المؤلف ان الدين المحمدي يعم الزنوج في افريقية اذا لم يستخدم المرسلون الكاثوليك والبروتستانت الاسباب لتنصير من بقي منهم بلا دين . وعلى الجملة فقد وصف بلاد السودانيين والصحراء والبربر والعرب بما لم يبق بعده مجال لقائل شأن العارفين المحققين الذين يؤلفون ويحسنون التأليف فجاء هذا الكتاب مرجعاً يستفتيه كل من تهمه دراسة احوال اولئك الزنوج .

منهل الوراد

قسطاكي بك الحمصي من اعيان حلب مشهور بادبه وفضله الف بعد بحث ستة عشر عاماً كتاباً في علم الانتقاد اصدر الجزء الاول منهُ في نحو ثلثمائة صفحة صغيرة تكلم فيه على علم النقد عند العرب وقال انه لم يكن معروفاً عندهم ايام استبحار العلم والحضارة في اقطارهم وان ما عرف عنهم لا يصح في الاكثر ان يسمى نقداً وتكلم على تاريخ النقد عند سائر الأمم وفي القرون الوسطى والقرون الحديثة وعلى اساليب الانشاء ورتب الشعر وطبقاته وافاض في ذلك فهذا الجزء الاول هو في تاريخ النقد وموضوعه استوفى تاريخه عند الافرنج اكثر مما استوفاه عند العرب والجزء الثاني وهو تحت الطبع في قواعد هذا الفن وفروعه . وقد اهدى المؤلف كتابه لطلاب العلم وتلاميذ المدارس عساهم يقعون على فائدة في تضاعيف سطور صرف المصنف على تدوينها شطراً من العمر قائلاً انه خالف بذلك عادة متقدمي العلماء والكتاب في هذا اللسان العربي المبين من اهداء تآليفهم لبعض امراء عصرهم وحكام زمانهم كما فعل ابو منصور الثعالبي باهداء كتابه نثر النظم وحل العقد الى الملك المؤيد ابي العباس خوارزم شاه وكتابيه المشهورين فقه اللغة ويتيمة الدهر الى الامير عبيدالله ابي الفضل الميكالي وحذا حذوه الفتح بن خاقان باهداء كتاب قلائد العقيان الى امير المؤمنين ابي اسحق بن يوسف بن تاشفين والفيروزابادي باهداء القاموس لمجلس الملك الاشرف اسماعيل صاحب اليمن واهدى الفيلسوف ابن خلدون تاريخه الى امير المؤمنين ابي عبدالله المريني .

بارك الله لقسطاكي بك بهمته التي ساقته الى افراد هذا الفن بالتأليف . والنقد كما هو المعلوم يرتقي بارتقاء الامة فعسى ان يكون من الكتب النافعة ما ينتج منه ارتقاؤه في هذا العصر بين الامة العربية .

نجعة الرائد

اتحفنا الشيخ حبيب اليازجي بنسخة من هذا الكتاب النفيس في المترادف والمتوارد تأليف عمه فقيد اللغة الشيخ ابرهيم اليازجي وفي هذا الكتاب ابواب مهمة لا يستغني كاتب

او معرب عن الفاظها وجملها التي اختارها الشيخ من ارق الالفاظ ومنسجم التراكيب للعرب وهذا الجزء في العلم والادب وما اليهما وفي سياسة احوال وافعال شتى مما يعرض في الالفة والمجتمع والمعاش وسبيل معالجة الامور وذكر اشياء من صفاتها واحوالها وهو يقع في ٣٢٥ صفحة بجيدة الطبع والوضع تدل على بعد غور كاتبها وتدقيقه فجدا لو اعتمدت عليه المدارس المصرية في التدريس والمراجعة فانه من خير ما أُلف في موضوعه وهو يطلب من مطبعة المعارف بالنجالة بمصر

كتاب الاخلاق

طبع محمد افندي هاشم الكتبي هذه الرسالة المفيدة للشيخ الاكبر محيي الدين بن عربي التي كتبها الى بعض اخوانه سنة احدى وتسعين وخمسمائة مجربة بقلم بليغ يذكرنا بنمط الاندلسيين في الانشاء . وهذه الرسالة مما يعلي مقام الشيخ الاكبر في صدور المنكرين عليه دع عنك المعتقدين به لانه لم يذكر فيها مالا يقع تحت الحس بل ذكر فاضل الاخلاق وسفسافها ومما قاله فيها : وملاك الامر في تهذيب الاخلاق وضبط النفس الشهوانية والنفس الغضبية هي تقوية النفس الناطقة فان بهذه النفس تكون جميع السياسات وهذه النفس اذا قويت (واصبحت) متمكنة من صاحبها امكنه ان يسوس بها قوتيه الباقيتين ويكف نفسه عن جميع القبائح ويتبع ابدا مكارم الاخلاق واذا لم تكن هذه النفس قوية في صاحبها وكانت مقهورة خائفة فاول ما ينبغي ان يعتمده في سياسة اخلاقه ان يروض هذه ويقويها وتقوية هذه النفس انما يكون بالعلوم العقلية فانه اذا نظر في العلوم العقلية ودقق النظر فيها ودرس كتب الاخلاق والسياسة وداوم عليها تيقظت نفسه وتنبهت وانتعشت من خمولها واحست بفضائلها واتقت من رذائلها وذلك ان هذه انما تضعف وتخفت اذا عدمت الفضائل والمثاقب واستولت عليها فاذا اقتبست الفضائل واكتسبت الآداب تيقظت من غشيتها وثارت من سكرتها وقويت بعد ضعفها وفضائل هذه النفس هي العلوم العقلية وخاصة مادق منها والرسالة كلها من هذا النمط في الانسجام والمرامي السامية في تهذيب النفس واشرابها حب الفضيلة .

غريب القرآن

طبع محمد امين افندي الخانجي وشركاؤه هذا الكتاب المسمى بنزهة القلوب للامام ابي بكر محمد بن عزيز السجستاني من اهل المئة الرابعة وهو على حروف المعجم مشروح اللفظ شرح واسهاب تيسر لطالب معاني مفردات الكتاب العزيز ان يرجع اليها في اسرع ما يمكن والكتاب من الحجم الصغير ويطلب من طابعه بالقاهرة بثلاثة قروش .

امالي السيد المرتضى

السيد المرتضى المتوفى في سنة ٤٣٦هو شقيق الشريف الرضي الاول عالم والكاتب اديب وقد طبع هذه الآلة محمد امين افندي الخانجي وشركاؤه امليه وهي اربعة اجزاء صدر الجزء الاول منها وقد جعل اشتراكه ١٥ قرشاً اميرياً بالاشتراك اذا اشترك المشترك قبل صدور الجزء الثاني وما بعد ذلك يباع بخمسة وعشرين قرشاً . وهذا الكتاب هو احد مآخذ كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي وفيه نبذ كثيرة في الادب والتاريخ قد لا تجد اكثرها في الكتب المتداولة وقد جعله المؤلف مجالس مجالس فكان هذا الجزء اثنين وعشرين مجلساً كل مجلس فيه ما رق وراق من الاخبار والآثار مثل تراجم بعض الدهريين والزنادقة والمعمرين وبعض رؤساء المعتزلة وما رواه لابن المقفع من الحكم قوله: قيل ان يحيى بن زياد الحارثي كتب اليه يلتمس معاقدة الاخاء والاجتماع على المودة والصفاء فأخر جوابه فكتب اليه كتاباً آخر يستريثه فكتب اليه عبدالله : ان الاخاء رق فكرهت ان أملكك رقي قبل ان اعرف حسن كنهك . وكان يقول ذل نفسك بالصبر على الجار السوء والعشير السوء والجليس السوء فان ذلك لا يكاد يخطئك . وكان يقول اذا نزل بك امرٌ مهم فانظر فان كان مما لهُ حيلة فلا تعجز وان كان مما لا حيلة فيه فلا تجزع وقال لبعض الكتاب : اياك والتشبع لوحشي الكلام ملمعاً في نبل البلاغة فان ذلك هو العي الاكبر . وقال لآخر عليك بما سهل من الالفاظ مع التجنب لالفاظ السفلة . وقيل له ما البلاغة فقال التي اذا سمعها الجاهل ظن انهُ يحسن مثلها . ومن كلام الجاحظ : ينبغي للكاتب ان يكون رقيق حواشي الكلام عذب ينابيعه اذا حاور سدد سهم الصواب الى غرض المعنى . وقال لا تكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة .

وروى من اخبار المعمرين ان عبدالمسيح بن بقيلة الغساني ذكر الكلبي وابو مخنف وغيرهما انهُ عاش ثلاثمائة سنة وخمسين سنة وادرك الاسلام فلم يسلم وكان نصرانياً وروي ان خالد بن الوليد لما نزل على الحيرة وتحصن منه اهلها ارسل اليهم ابعثوا الي رجلاً من عقلائكم وذوي السابكم فيعثوا اليه بعبدالمسيح بن بقيلة فاقبل يمشي حتى دنا من خالد فقال: انعم صباحاً ايها الملك قال: قد اغنانا الله عن تحيتك فمن اين اقصى اثرك ايها الشيخ قال: من ظهر ابي . قال : من اين خرجت قال : من بطن امي . قال : فعلام انت قال : على الارض قال : فهيم انت قال : في ثيابي . قال : اتعقل لا عقلت . قال : اي والله واُقيد . قال : ابن كم انت . قال : ابن رجل واحد . قال خالد : ما رأيت كاليوم قط اني اسأله عن الشيء ويجو في غيره . قال : ما احببتك الا عما سألت فاسأل عما بدالك . قال اعرب انتم

ام نبط قال : عرب استنبطنا ونبط استعربنا . قال : فحرب انتم ام سلم . قال : بل سلم . قال : فما هذي الحصون . قال : بنيناها للسفيه نحذر منه حتى يجيء الحليم فينهاه . قال : كم اتى لك . قال : خمسون وثلاثمائة سنة . قال : فما ادركت . قال ادركت سفن البحر في السماوة في هذا الجرف ورأيت المرأة تخرج من الحيرة وتضع مكتلها على رأسها لا تزود الا رغيفاً حتى تأتي الشام ثم قد اصبحت خراباً يباباً وذلك دأب الله في العباد والبلاد قال : ومعهُ سم ساعة يقلبهُ في كفهِ . فقال لهُ خالد : ما هذا في كفك . قال : هذا السم . قال : ما تصنع بهِ . قال ان كان عندك ما يوافق قومي واهل بلدي حمدت الله وقبلته وان كانت الاخرى لم اكن اول من ساق اليهم ذلاً وبلاء اشربهُ فاستريح من الدنيا فانما بقي من عمري اليسير . قال خالد: هاته فاخذه ثم قال بسم الله و بالله رب الارض والسماء الذي لا يضر مع اسمه شيء فشربهُ فتجللته غشية ثم ضرب بذقنه في صدره طويلاً ثم غرق فافاق كأنما نشط من عقال فرجع ابن بقيلة الى قومه فقال جئتكم من عند شيطان اكل سم ساعة فلم يضره صانعوا القوم واخرجوهم عنكم فان هذا امر مصنوع لهم فصالحوهم على مائة الف درهم وانشأ يقول :

ابعد المنذرين ارى سواماً ... يروح بالخورنق والسدير
ابعد فوارس النعمان ارعى ... مراعي نهر مرة فالحفير
تحاماهُ فوارس كل قوم ... مخافة ضيغم عالي الزئير
فصرنا بعد هلك أبي قبيس ... كمثل الشاء في اليوم المطير
تقسمنا القبائل من معد ... علانية كأيسار الجزور
نؤدي الخرج بعد خراج كسرى ... وخرج بني قريظة والنضير
كذاك الدهر دولته سجال ... فيوم من مساة او سرور

وبالجملة فالكتاب رخيص الثمن ثمين القيمة والنفع جداً وقد عني السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي بتصحيحه وضبط الفاظه وتعليق بعض حواش عليه وهذا الجزء في ٢٣٠ صفحة مطبوع الطبع المتوسط مشكول محل الاشكال من الفاظه